من همموم الحياة فيه

بدأ الهم منذ الازل الذى انبعثت طاقة الحياة فى مادة الكون أول مرة على صورة يحار فيها الفهم فبدأ الهم الديمومة بالغذاء و برد الموت و بالتناسل حتى اذا ارتقت المادة الحية فى مدارج الصعود شيئا توسع نطاق همها على الجوانب و فى الأعماق بزيادة الوجوه التى بات عليها ان تمدها بطاقة الحياة و بتكاثر المكامن التى تنذرها بخطر الفناء و باضطرارها الى التزيد من وسائل الحماية و الاصطياد. ثم ارتقت المادة الحية و تطورت و تنوعت اصولا و فروعا فتباينت اهاسيسها البدائية الى طور الغريزة الجامعة بين التلقائية و بين الارادة فيما تقبل و ترفض وكانت الغريزة تفسرها متنوعة على انواع لا تكاد تحصى من الكائن الحى المتطور نحو اتساع الاستشعار فى البيئة و تنوع الاحتيال لتذليل المصاعب فى اعقاب من الدهر طوت مئات الملايين من السنين و شهدت انقراض الوف الأصناف التى عاكستها الظروف أو قهرتها وسائل الحماية اذ عجزت عن التأقلم او غابت سبلها فى كتب الفوت. ثم طرأ البشر بما هو معروف من خصائصه التى تميزه عن الوجود كله، حيه وميته. و سواء عزى ظهوره الى طفرة واسعة فى مسار تطوره البايولوجى البطئ فانحاز بها عما سبقه من الحى الذى تطور منه أو عزى ذلك الى تركيب قابلية فيه لم تكن موجودة فى اجياله المنقضية فالنتيجة واحدة من حيث ~~منحيث~~ ان البشر انفتحت مداركه المستجدة لسبل التعرف و التخيل و النزوع تنوعت الى الكثرة و تفاوتت فى الوعى على مر الزمن عبر تضاريس التجربة و الخطأ فأنتجت كل ما هو مضمون الاجتماع و التأريخ. و ربما كان

ما خلقت نفسي كرديا وما خلقت نفسك عربيا ولكننا في حكم وجودينا تكردنا وتعربنا نحمل على اكتافنا وقر الانتماء القومي صعودا الى عشرات القرون ونتكلف لهم الديمومة لاعقابنا حتى ابد الآبدين فكل تقصير في الوفاء بالواجب القومي هو تفريط في قدسية امانة تشمل الوجود المحسوس والمرئي والمرجى في وعيك ووعيي فاذا انفصمت خيوط التجاذب بيني وبينك اردمتني بأي سبب للفصم والقصم ولهفوت على سطح الوجود فقاعة ماء تعجز عن التشبث والالتصاق فقد تزلزلت روابط البشرية عموماً وعانت من صولى الأحاسيس على فوافي وطرقت الحالي الفاظ سعى بأرباحي معناها وحارت عيني في الرؤى ناصلة عالجة فما من شيء يثبت مكانه صين اكون كالقيط الذي يجهل ابويه ولك انت ان تعبر عما نفسك بما ترغب اذا سلخوا منك جلد اردمتك

وليس شيء مما يتصف بينتمي اليه البشر يرقى الى قوة الانتماء القومي لانه وحده وشيجة نسبية تنتقل الى المواليد بطناً بعد بطن بلا تكلف من الوجود ودون حاجة الى اصطناع الهوية بترخيص من متفضل فالمنتمي الى دين أو مذهب سياسي أو مدرسة فكرية يستطيع ان ينسلخ منه باتخاذ بديله وكذلك يستطيع الانسلاخ من بنوته للوالدين او انكار انتمائه القبلي المنطوي في الانتماء القومي

والانشغال الروحي بالانتماء هذا اذا عبر عن نفسه بأعلى ادرافع - فهو يكون بالضرورة اقوى في وجدان من بخست الايام قومه من حقوقه وانتقصت

اول شئ بزغ من نور العقل هو (الكلام) ذلك ان الأصوات المبهمة الخارجة من لهاة البهائم كانت وسيلة التعبير عن المدركات الغريزية التي لا افصاح فيها وقد بقي عند البشر من تلك الأصوات مقدار ملحوظ فتراه يخرج عند الغضب والرضا والشك واليقين والخوف والامان والاستحسان والتقبيح اصواتا دالة على تلك المشاعر قريبة الشبه بعجمة الفرس ومواء القط في احوالهما المختلفة. فلما انقلب الادراك الغريزي عنده الى الفهم الواعي صارت الاصوات قاصرة عن التعبير فيما هو مدرك عقلي فانبثق النطق ترجماناً للعقل على وجه الضرورة الملجئة ومن هذه الزاوية جاء تصوري بأن النطق أول منجزات العقل فانه لا مانع يمنع من ان يكون البشر قد جرى في بقية شؤونه على انماطها القديمة مدة من الزمان حتى صار يلبس الملبوس ويعيش مستويا في طور لاحق. فاذا عجز الكلام بتراكيبه ومفرداته ان يجاري العقل في تصوراته الطليقة من القيود والحدود أسعفه ذكاء الذكاء بابتداع الرمز والعلامة والاشارة ادوات لردم الفجوة بينهما على قدر الامكان وانه لمفارقة ان يتصل اول الكتابة قبل خمسة آلاف سنة بآخر انماط التفهيم الحديث في استعانة كليهما بالصورة والرمز عوضا عن حروف الهجاء فقد تساوت رحلة البداية بصعوبة النهاية من حيث الوسيلة في احوال كثيرة.

هموم عصر الكهف المتمثلة في الاعتقاد وفي الاحتياجات وفي شئ من الحزن وتدبير الناء اتسعت في طور الرعي ثم في الزراعة عمقا ومدى كأن تكون هموم الاعتقاد جاوزت حدود

الذات الى ذوات المقتنيات والى الحوته التي عليها ان تتسع باتساع مرافق العيش. والفكر قد تغلغل الى عمق يسرته التجربة و التصور و تشابكت الاشباح الموهومة لظواهر الأشياء فنسجت أوشية من الاساطير تهيأ لبعضها ان يعيش حتى يومنا هذا فما لمع برق او هب اعصار أو زلزل زلزال او توارت النجوم واشمس و القمر ثم ظهرت فبهرت الا اومضت في روح الأجيال القديمة قوى مستورة تبطش وتدمر وقد تبسم وتعمر.

و القول في اتساع الفهم و اتساع الضلال و اتساع الأهوال و اتساع المخاوف و اتساع التشابكات من عصر الى عصر حتى يوم نعيشه بآخر صرعة للذعر من الرأس النووي، هو استرسال فيما لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر.. فانا اذا سحنا سجل كل المخاوف و المطامح و المباهج و المكاره التي انطوت بانطواء ايامها الماضية و انغمسنا في تعداد الموجود منها في مدينة واحدة على أيامنا لحار الفهم في حصره و اعجز الاذهان تعداده و يستفحل العجز في استكناه بعض معدود منه فادراك الكنه ليس كالاحساس بالمنظور و شتان ما بينهما شتانك ما بين الجوهر والعرض فانه لو اجتمع اهل الارض لاستكناه المضمون النفسي الذي دفع العربي الى الجمع بين الطاء والالف والراء للتعبير عن مضمون (طار) في الماضي المفرد و دفع الكردي ليقول (فرى - فاء و راء وياء) في المعنى نفسه لما بلغوا فيه الا تداعيات افتراضية تضرب يميناً وشمالاً وفي كل اتجاه ثم لا تغني عن الحق شيئاً فعلم ذلك موكول الى مستقبل بعيد في اعقاب فتوح علمية قد تستغرق

بمئات الالوف من السنين او دون ذلك و لربما اقتنع فرانكه على العقول و العلوم حتى ابد الآبدين ما لم ينته لهم بانتهاء البشر نفسه في الاعصبه الجهنمية النووية المسخرة في أيد قد تكون عابثة لاهية أو معتزة بالأثم او مغترة بالسلطان أو متغلبة بأفونة طائشة . فلقد اخرجنا المارد من قمقمه وهو ضليق ان يحكم قبضته حول رقابنا ما لم نبتدع ادعية وطلاسم في الضبط و الشكم تباعد بيننا وبين الوقوع في أسر هذا الأسير المنطلق

هموم العصر كمضمون العصر في ثرائه وازدحامه وتعقيده، وفي استعراضها يختفي حساب المراتب و سوانح السعد فذلك (لهم) من آخر يتفرق بدوره على اشكال لا سهولة في تتبعها وكثير منها يدخل في باب مصائب قوم عند قوم فوائد ، فمثلها مثل الفوائد التي هي عند قوم مصائب . هموم العصر تتوزع في دنيانا على مساحات تتفاوت حظها منها بتفاوت نصيبها من التخلف الحضاري و فجاجة الرأي وضحالة التجربة فلست اعد نسبة اطردت بين طرف أية معادلة اجتماعية كاطراد الهم بالمراد التخلف فانه بمثل ما ينقلب المال في يد المأفون الى فضل قدرة على تدمير الذات تنقلب معظم مصادر السعادة في الشعوب المتخلفة الى مساقط لذرق الأعناق وتهشم الأضلاع فما علمنا حتى يومنا هذا النعمة من النقمة في سيل التسلط على دنيا الفقراء فلقد كان خير وجوه الانتفاع منه هو بيع الاغنياء من غير دنيانا اسلحة الفتك و سلع الامتاع او الأشباع . و مما يزيد هجم الهم الراهن على صدر العالم الثالث والرابع و

مابعدهما ان هموما مثله وأشد منه قد تلاشت وتوارت من العوالم الأخرى فالنظر المبصر المحايد يدرك بوضوح ان كثيرا جداً من اسباب الخراب في عالمنا ليس عربيا ان يثير اى اشكال بين البشر المحتفظين بحد مقبول من سلامة الرؤية و نظافة الطوية فالهم الأكبر الذى يلد الهموم الأخرى صغراها و وسطاها و كبراها هو هذا النزيف المغرى بالعدوان الذى يرفع شعاراً على الهداف تقدست و ازينت بالبهرج حتى صارت فى جمال قوس القزح تفتك بالنفوس وتأتى على الزرع والضرع ما بين التهليل والتهريج و التزمير فيا لبركات الناعقة البازغة !

فاذا بدا للعين المبصرة التى لم تلتبس عليها الرؤية من وراء نظارات تلوينت بالايديولوجيات و التخريجات ان الويل المطبق على دنيانا الثالثة كالغيبة المدلهمة تلتمع بروقها منذرة و تخط صواعقها ساحقة ماحقة ليس بالقضاء المحتوم الذى لابد و لا هو بالأحتمال الارجح المنقذ وقوعه و لا هو بائس الذى يتمادى احتمال صدوثه و عدمه بل انه فى منطق العقل السوى الذى لم يتبلد بالتزعم والشهوة هو الأحتمال الأضعف والأبعد كاحتمال القاء المرء نفسه من حالق .. واذا بدا للعين المبصرة ان جفاف السواقى وبوار الأرضين وانقلاع المغرات وخواء البيوت يكفى فيه الأهمال بلا داع الى تكلف البراعة فى استظهار المقولات الفلسفية و تخذ الهمة فى تشكيل المنظمات وتحزيب الأحزاب و افتعال المعارك كما هو دأبنا فى عالمنا البائس منذ عشرات السنين .. فاذا بدا هذا وذاك وهاذاك من مصائب العالم الثالث او العشرين ينزل بساحة

على رؤوس ملايات العجزة من افراد شعوبه وكان ضليقاً الا ينزل أصلا أو ينزل عشره واقل من عشره وتحمل بقيته التي لم تنزل الى راحة اعتبارية من متحصلة من الرزوح تحت ثقل اخف ما دعت إليه الضرورة اصلا، اذا بدا كل هذا وما هو ادهى من كل هذا فقد انكشف للعين شئ شنيع بشع وبيل يكون مجرد انكشافه سندعيا للشعور بفضل شقاء لا خلاص منه ذلك لان التيقن من ان القسط الاعظم للمصائب الطاحنة والارزاء الفادحة كانت حرية إلا تقع وان بدائلها من الأمان والسلامة اجتبت واشعت تحقيقاً لميل أنفس نزعت وبغت وتعفرنت على ملايين المساكين الذين تنازلوا عن ارضيتهم، هذا التيقن يضع البلاء في محجه الحقيقي المذهل الذي لا عزاء فيه اطلاقاً ليس لانه بلاء نزل بلا ضرورة قط بل لأنه بسبب كونه نزل عبثاً يستطيع أن يدوم عبثاً وبلا ضرورة ما شاء له ان يدوم ثم انه من شأنه ان يتعاظم شره شهرا بعد شهر وقد يتعاظم في بيوت يوما بعد يوم ويتعاظم بين ناس آخرين ساعة بعد ساعة بعد ليل وبين اشتات من مهاوين النضال ساعة بعد أخرى، وعلى قدر اشر المستطير من تنابجهم وتناحرهم ينتشر رذاذ الموت والخراب وانهيال على الأطراف فوق رؤوس النيام والايقاظ من عامة الناس فيها ضنا مكمن للرهم كالملجم البلك يزيدك هما اذا زدته نبشا ويحملك على فضلة الاستبشاع بعداء انعدام الدواعي المقنعة لوجوده ثم يدفعك على القسر المر الوبيل انسداد الباب بالتمام وانكمال بوجه كلمة الحق والصواب شجباً لأظهر المواقف بطلاناً واشد الاحداث عدوانا: المتأمل

الحساس لما ادركهم من آفاق عالمنا الثالث الخامس العاشر يكاد يلمس بأنامله كثافة البلوى ويحس تسرب الفجيعة الى ما تحت جلده كدبيب العقرب تحت إبطيه فاني ارى شعوبها في مقام شخص علق بنهايتي ثوبه قبس من نار ويراه قد اتقد واشتد لينتشر في سائر ثوبه و بدنه ولا يستطيع ان يرمي اصبعا لصده وردده واخماده.

والناس في حمل الهم و معاناته على خطوط متفاوتة ولقد قال الشاعر (نالي) في الكردية ما معناه: ان من الناس لطرازا يكون الهم قوته وأنا اقتات هم وهم العالمين معا - رحمه الله. والافكوكة الشعبية نقلت الينا سالوفة مثلية تقول ان مخلوقا مازج الهم طبعه فما ضلا شيء في نظره من هم يمكن العثور عليه في طيات فسمى لذلك بالعم مهموم. وفي صباح نادر المثال استيقظ ففكر في الاحتمالات التي تزوده بهمه المعتاد فما عثر على ضالته وكان حريا ان يحزن على عدم وجود شيء يحمل همه فدخلت ابرته عليه وقالت ان أتان جارهم ولدت مهشا بلا ذيل و بلا اذنين فضرب مهموم كفا بكف وقال لاحول ولا قوة الا بالله كيف العمل اذا لهم بعد سنة في الطين اللزج وليس له ذيل او اذن يمكن الامساك به لأذاهبه !! والواقع هو ان كاتب هذه السطور ما جند نفسه للبحث على الهموم ولا كانت السوداوية من طباعه و لربما صح القول بانه واحد من القلة التي تشربت روحها فلسفة حب الوجود وتغلغل الايمان في ضميرها بحتمية ارتقاء الانسان فوق عقاراته الزائفة و رغم يقينها بحلول يوم يهزأ فيه اخف ناسه عقلا من قراءات تتعثر بخطى عباقرة يومنا هذا فما كفت مرهف الحس باوجاع زملاء

مأفونة وضيلة مندسة الا لفرط غرامي بالاشراق المحكم المحتفل المنتظر
الذي يحيله فجاجة الرأي وهشاشة الوعي وركاكة العزم وبلاهة
النظر وضلالة القصد عامة وعند الطلائع والادلاء والقادة خاصة
الى ضياع وضلال وخسار ودمار وسوء مرتع. فاذا حصل اليأس من
رشد اولئك المساكين بمقاليد الأمور فقد كان اليأس قبل ذلك
حاصل من رفض العامة للافانين البلاء التي تحوكها غالبية القادة و
الطلائع بغباء أو ذكاء فتكون دائرة المحنة اتصلت من طرفيها على
الواقع المطرد في الانكفاء والاطاحام الى حد القرف والاشمئزاز..
اني اذ اجد الألم يعتصرني في رؤية زهرة تذبل يكاثرني الألم من
جهة اخرى في منبع زهور كانت ستنبت وتتفتح بالجمال والرواء و
انفاس العطر، فما كنت بالمتبلد الذي يأسى على فوات الريح ثم ينسى
فوات رأس المال. ان جفاف اي منبع ماء على وجه الأرض هو بالبداهة
حرمان طائفة من الأحياء من شرابه وحرمان طائفة من البشر ما كان
خليقا ان يروى من مزرعاته وكل حي يموت في شبابه هو انقطاع
سلالة من الاحياء كانوا سيعيشون ويلدون فالعدم الذي يطرأ على
الموجود هو ايذان بعدمه وعدم عقباه بل ان عبوسا في وجه آدمي
هو بالبداهة عرض لموقف سلبي عقيم ثم هو بشيء من الحساب قتل
لشروع بسمة وواد لاستهلال تحية وسد باب كان محتملا ان ينفتح
للالفة والصداقة ثم ان كلا من العبوس والابتسام يلمس عصب المتلقي
ويوحي اليه صورة منه تعيش في خلده أمدا وهل كلمة طيبة
كشجرة طيبة أصلها ثابت وتخرج سيح سنابل في كل موسم مائة
حبة والكلمة الخبيثة شجرة خبيثة فيالبيت الذي اجتثت من فوق الارض.

كثيرة هي الهموم وانواع الهموم ودرجات الهموم لعن الله كثيرها وقليلها وكل انواعها ودرجاتها ويا للكف المقلوب في نصح الوعاظ وذوي الرأي وأصحاب الفكر والفلسفة لتصوير الهم وبواعثه وتكامنه على أنه من طبائع الاشياء وضربة لازب لامفكاك منه وانه ... كالليل الذي هو مدركي ولما سنعهم ان تصوروا الراحة والسعادة وأطايب الأشياء على أنها هي من طبائع الاشياء ومطالبها النفوس فلم لاتكون هي ضربة لازب وحكم المحتوم وشيء البديهة! ما الذي يقهر ارادة العقلاء وقريحة الحهابذة وفطنة الاذكياء من القائلين والعاملين والكاتبين والمشتغلين على ان يرفعوا بالنيابة عن كل البشر علم الاستسلام للمنتظر الأسوأ والمقدر الاقبح والمحتم الأشد الألد! ما بالهم في تظاهرهم بالحرص على قولة الحق يسعوننا أنكى ما نكره وأقتله لرجاء الخير واقواه في حملنا على الاستسلام؟ هل تبرعوا بشيء من الكذب الحلو والتلفيق الشهي في مزج الاحتمالات المنتظرة بمسحة من الخضرة والرواء؟ اليس في المراقي سلم واحد ضارع مصنون التناقض ووحدة الأضداد؟ انى ليبشعني ان يكون وجودي من عدمك وان تنمو سلالتي من هلاكك وينبع موردي من افلاسك. أكره الوجود جملة وتفصيلا اذا ثبت بناؤه على مبدأ التنافي والتضاد والمحالكة وبثت حياة تلد الموت وتولد من الموت. ان كراهيتي للموت والعدم والانقضاء والتلاشي تدفعني الى التمسك بالحياة وبما ينقضها والاحتيال على لحايدتها حتى انى صرت انحل عقيدة تعاكس مفاهيم التناقض والمفاسخة فاذا

تأكد بما لا شك فيه ان بقائي موقوف على هلاك شخص آخر أصبح عندي من لزوم اللوازم ان اتحايل على فهم الحقيقة/هذه حتى أجد صيغة معادلة اخرى تختزل عامل (الحقيقة) وتمهد للمعايشة والمصاحبة وسولت لنفسي الاقتناع بامكان اكتشاف معادلة هادئة لحكم المفاسخة بأن اتنازل عن شئ من اسباب تعلق دواعي بهلاك فلان وان يتنازل فلان عن شئ مما يربط دواعه بهلاكي فان دوام ثلاثة ارباع كل واحد منا اجدى عليه وعلى من دوام أربعة ارباع واحد منا ذلك ان ثلاثة الارباع مضروبة في اثنين تساوي ستة ارباع ولا نعدم بعد ذلك طريقة للتعايش تساعد كلا منا على استعادة الربع الذي تنازل عنه في المصالحة فنصبح في الختام ثمانية ارباع كاملة. واذا كان التوصل الى مثل هذه المعادلات المريحة لا يتم في الواقع بالسهولة الملحوظة على وجه الورق فان شرف الغاية منها والنتيجة الحاصلة فيها تستحق عناء التبشير بها والدعوة اليها والتحذير من اهمالها واستقاطها من كل حساب، ثم ان الاستسلام لحكم التناقض الفاسخ لأحد طرفي كل معادلة صوفي الاساس تكلف عمل ثقيل حاطم أيسر تبعاته تتجاوز أقصى حدود الخسران في الركون الى شعار جميل مشوب بالخيال. وربما قائل يقول ان التبشير بمثل هذه المعادلات الحبية الأخوية المؤدية الى نوم هنا طيلي بين اطراف بعضها قوي وجلها ضعيف صوفي المآل يؤدي الى دوام الحال التي وفرت غنى الغني وفقر الفقير فأقول مستعينا ببقية صبر تبرأ من طول احتمال البلاء في اعقاب مئتي سنة من شؤم المفاسخة ورفض المصالحة ان تصوير هذا التبشير بمثل هذا

هم كبير

التشويه هو في ذاته ~~موضوعه~~ طال عناء البشريه وهو نفسه الباب الأوسع الذي تلج منه الانسانية الى دنيا الخراب والبوار فالدعوة التي ألهج بها ليست ذات سلك واحد يوصل صوت المصالحة الى آذان الضعفاء لتحذيرهم بالكلام الحريري عن مقارعة الاقوياء ~~هي~~ فدعوتي في نهاية القرن العشرين نذير بالشر المستطير للأقوياء الأقل عددا والأكثر عرضة للهزيمة في شحذ السكينة ثم انها لا ترجئ المكافأة الى الحياة الأخرى بل لا ترجئها يوما واحدا عن أقرب مواعيدها وهي بعد هذا وذاك نداء الى عقول القادة من ضلائع الكفاح والمناضلة الذين يحبون وراءهم مليارات المتابعين لهم من عامة البسطاء و يملكون بهم او عن سبيل الحلول الجذرية والشعارات الحديثة التي يظهر بطلانها و افلاسها من اول نظر يقيس الى حلول أخرى غير جذرية وغير حديثة الا انها في قمة الحضارة وراحة البال. والدعوة بعد هذا كله متناقة مع طبائع التطور العفوي الذي اوصل البشرية عبر موازنات المعايشة والتعاون والأخذ والعطاء والتفاهم على المصالحة من حياة الكهوف الى المشي فوق وجه القمر فانا استعانت بالمفاهيم الحضارية الراقية للسلوك وبالوسائل العلمية القاهرة للموانع كانت جديرة ان تشق للأمل المرجو ما يليق به من ترعة رائقة الماء ومن شريعة مكتنفة بالخمائل وتقيم محطات راحة حقاقة لمواكب العرس والكلام هنا لا يعني انكار صورة الظلم والقبح والشقاوة في ماضي الانسان فانها كانت وبالأسى جزء مكمل وخطيرا من مكونات الاجتماع وهي حتى يومنا هذا في اطراد وازدياد على اغلب رقاع ارضنا الحبيبة الكئيبة ولكن المقصود هنا هو ثلاث حقائق خطيرة

يتم نسيانها واسقاطها من الاعتبار حتى وكأنها غير موجودة أصلا:
فالحقيقة الاولى هي ان هذا الجانب الاجتماعي المظلم المدمر الحالم
المفرق من العداوات و المفاسخات و التناقضات كان منذ الأزل مانعا
للخير معيقا للتطور هادما للبناء قاتلا للحياة فمن حقنا على انفسنا
و من واجب الانصاف في زمننا ان ندينه و نلعنه و نبحث جذوره و
نظاهره في وعينا و عملنا و التزاماتنا الفكرية و الأدبية. وليس هذا
الأمر من هواش الحياة التي يسهل التغلب عليها أو الانتهاء منها ولا
هي من البساطة بحيث يتسنى شرحها في سطور وقد بنيت فلسفات كبرى
على اعتبار التناقض محركا للدنيا و باعثا على تطور البشر و مفسراً لحتمية
زوال الطبقات في تفصيل لا يحويه المقام. وتم التوسع في معنى التناقض
حتى شمل امورا متخالفة لا يكون التناقض بينها الا كما يكون بين الرئة و
الكبد في اقتسامهما سواد الدم و لهما في واقع الأمر متعاونان على
اداة الحياة في الجسم الحي فاذا ماتت احداهما لم تنتقل ~~الحياة~~ خصتها من
اغذية الدم الى الأخرى بل ماتت معها في دقائق. فاذا تناولنا دفعا
للاطالة و سمينا كل الأضلاعات تناقضات وجب القول بانها كلها
حقيقات مبيدات مهلكات و لسن معينات على التقدم فليس من المعقول
اعتبار الحرب و المكائد و انتاج الاسوال و الأنفس حوافز للتقدم و بواعث
على التطور، و يكون القول بعد ذلك بان التفاهم هو نتيجة هذه التناقضات
و التناقضات اكثر بعدا من كل المعقولات

و الحقيقة الثانية هو ان التطور حصل بالتعاون فحيثما اختفى
الاختلاف و هدأت الأحوال و ساد التفاهم كانت البيادر أغنى
و كانت المحاصيل في كل الحقول من زراعية و صناعية و تجارية و علمية

وفنية ومزاجية أشهى وأزهى وأقرب الى شفاه المحتاج. ان الخلاف على المصلحة وعلى ما يجاورها الى الطمع قد يدفع أطرافها الى زيادة النشاط ولكن الأجدى ان يتم التفاهم عليها بلا عراك، فمثلها مثل الجريمة ان تدخل الجسم الحي تدفع دفاعاته على النشاط ولكن الجسم كان غنياً عن هذا النشاط المصروف في رد الاذى واجدى عليه ان يصرفه في التغذية والتقوية. ثم ان التفاوت في الحظوظ من مال وجمال وذكاء وقوة شخصية وصحة جسمية كان ولا يزال أمراً منتظراً من اقصى اليمين الى أقصى اليسار فلا وجه لدفع الناس الى المراشة في كل أمر اختلفت فيه حظوظهم بنسب مألوفة متوقعة. ومهما قيل ويقال ان الناس في الأنظمة الفلانية متساوون فليس يجوز عقلاً ومنطقاً ان يتساوى رئيس الدولة مع حارس الغابات ولا يمكن ان يزدهر فن أو علم اذا تساوى عالم الذرة وراقص الباليه وطبيب الأوبرا مع طبيب الغاب وفلاح المزرعة. فلكي يحل التساوي يجب ان يتوحد عمل الجميع فيكونوا كلهم رؤساء دولة أو عمالا وفلاحين ونحاتين. والحقيقة هي ان هذا الكلام لا يستدرك له لولا غرابة ما يقال حول المساواة والتفاوت فالواقع البعيد عن الأدشية الفلسفية يقول ان بلداً مثل الدانمارك بلغ مرتبة عليا من التطور الحضاري وراء كل ما يحلم به أصحاب النظريات المبنية على التناقض والحلول الجذرية بلا طبل ولا زمر ولا تهريج او اسالة دماء أو تحريق أو تمزيق فاستقامت فيه موازين المعيشة والتصرف فكانت نتيجتها في مرفق كمرفق الفنادق أن أصحابها يكادون يدفعون ثمن الرشوة لنزلائهم بما يقدمون اليهم من خدمة ممتازة ويوفرون من صنوف الراحة والتسلية على حين يكون مدير الفندق في البلد الثوري

الذى عالج مشاكله فى ضوء نظرية التناقض أحداً بالا و اقل مسؤولية
اذا قتل رغبة النزلاء فى البقاء عنده بالأهمال والأستخفاف إلا إذا
دفعوا له ثمن تعبه فى توفير الراحة لهم . هذا منطق المصلحة بعيدا من
النظريات والفلسفات حتى اليوم الذى ترتق فيه ضمائر الناس
بالتربية وبعدم الحاجة الى الالتواء و بعدم القدرة على الألتواء
فيستوى صاحب الفندق مع مديره المأجور فى تعاطيها مع النزلاء و
ذلك يوم ليس قريبا من عالمنا المعاش ويزداد بعدا بازدياد الأصرار
على التمسك بتلابيب التناقضات مفتاحا لجنة الله فى ارضه و
بتقديم الحلول الجذرية على الحلول المرحلية فى شاكل الحياة وهذا فى
ذاته هم أناخ بكلكله على الصدور فى عشرات السنين .

والحقيقة الثالثة هى ان الأنتهاء من التناقضات والاختلافات
والتفاوتات عن سبيل فرض الحل بالكرباج من قبل اصحاب الحلول
الجذرية الحدية فضلا عما فيه من افتراضات نظرية لا اساس لها ولا
صلاحة فيها فهو بسبب بعده عن الحق فى مقدماته الفلسفية يفضى
الى نتائج معكوسة اولها و أظهرها ان الأمر الناص بعد فرض الحلول
المذكورة يكونا أشد قدرة على الايذاء و المضايقة وفرض الذات فى
مختلف الشكول والصور فما كان تاجر الشورجة ببغداد أو فياريات
دوسكو على مدى التأريخ سهيا مروعا منذرا عشر معشار الشرطى أو
الكادر الحزبى الذى تلمع فيزانة الحل الجذرى فى قبعته الحدية الحديدية .
وما يزيد الشر بلاء هو انه بقدر التخلف للبلد الذى يخضع للحلول
الجذرية تكون عفاسة الأمر أشد و أظهر و أقتل للأذهان فالبلدان المتأخرة
لم تتأصل فيها مقاييس العدالة وسلامة السلوك لكى يرتدع بها

عامل الكرباج أو يحتى إليه المهدد بالكرباج . ونحن ان نقول (الحلول الجذرية) فقد صدقت كلمة الحلول في صيغة الجمع من حيث ان الاجتهادات الفوقية التي لا يطمع احد من المستويات التحتية في نقدها ابتدعت اشكالا من الحلول والمعالجات النهائية كانا كل واحد منها موافقاً لمزاج مبتدعه حتى صرنا نجد رئيس بلد عربي ثائر يأخذ دور المنادي في السوق فينادي على فاعل الخير من رؤساء الدول العربية على وحدة بلديهما لقاء اجزاء من المساعدة ومن اموال النفط ولا حول ولا قوة ...

والحقائق الثلاث الآنفة قليل من كثير كله ادانة للحدية والتطرف والتماس الدواء من بلسم التناقض .

ان الافكار المطلقة من اية جهة كانت تتسم بشمول ينسحب كالماء أو الضوء على المرئيات كلها فلا يفلت صغيرة ولا كبيرة الا حواها ويبرز من ذلك فهم وثان وعاش على مدى الزمان لأن الحقائق الصلبة العنيدة تظل بطلاقة دون ان تدري أنها تعارض او تهدم بعضا من مقولات تلك الأفكار فقد حدث ان كرة ارضنا هذه كانت تجهل ان دورانها حول الشمس حقيقة تزعج أفكاراً غيبية استقرت على ثبات الارض في وسط الكون فظلت تدور وتدور حتى ظهر ذكي من علماء الفلك أدرك سرها فكشفه للناس فوجبت معارضة هذه الحقيقة المزلزلة لقيم قامت على سكون الأرض بارغام علماء الفلك على انكار دورانها فأنكره من لدن عليه روحه و اعترف من لم يوافقه رأيه على مطاوعة ذوي السلطان وكان لنا قبل ذلك بقرون مشكلة حول خلق القرآن وقدمه شغلت الحاكم والمحكوم وطحنت اناساً و جنت آخرين ولقي بعضهم سبيلا للهرب فنجا بجلده و يقينه .

وتوالت بعدها النوازع ~~كانت تقوى على الدفع~~ من تحكم (الرأى الواحد) عبر التاريخ الاحق حتى أيامنا هذه فتفاقمت فيه المحنة و عظمت البلوى فى القرنين الأخيرين بازدياد العدد للمتحزبين فى مناقشة الأفكار و اتباعها والبذل من أجلها وتنوعت المدارس و الفلسفات التى دفعت حوبات المنازعة والمدافعة و تفاقمت المشاكل نتيجة ازدياد النفوس و المنتجات و تشابك المصالح الكبرى و مادونها الكبرى وكان لاتساع مصادر الاعلام وسرعة تبليغها الأثر الحاسم فى اختزال الزمن اللازم لنضج اسباب الانفجار وتلك امور معروفة ما كانت الحاجة تدعو اليها لولا ضرورة ما ضرورات هذا المقال استدعتنى الى المرور بها كى اقول فيما قولا خاصاً بى من زاوية الهموم التى تنبثق من ادامة النظر فى ~~[illegible]~~ أسباب الكوارث لا الكوارث ذاتها فقد تعاظم الهم عندى بقياسه الى ما عند غيرى حين وجدت ان غالبية الخلافات و المفاسخات تحدث لا بطبيعة الأشياء و انما بطبيعة النفوس أو بهواها وشرتها و انطلاقها من كوابحها أو بغاها و ضررها و غرقها فى الأفن والضلال والفرق شاسع واسع بين تعليل الكوارث بطبائع الأشياء وتعليلها بطبائع النفوس فانه اذا كانت طبائع الأشياء تقتضى هذا التناحر كان الحديث عن مغالبتها و ابطال حكمها ضربا من العبث لا محالة من قبيل الحديث عن منع برد الشتاء و ثقل الحديد و تعاقب الفصول ويكون اعتبار الهم سخفاً عقيماً لا طائل تحته .. ويبدو لى ان عامة الناس مرتاهون الى التفسير الطبيعى فى تعليل الكوارث الاجتماعية عامة

فانتفت عندهم الدوافع الموجودة عندنا لحملهم لاعلاج له بنظرهم.
ومن المفكرين اناس دققوا النظر اكثر من نظر عامة الناس وغاصوا
الى ما تحت السطح المرئي للاجتماع فنقلوا سبب المفاسحات من
صورته الطبيعية السائدة الى صورة اجتماعية ممثلة في تباين
المصالح فمحوه قوة السبب الطبيعي في تعليل شؤون البشر وبهذا
اضعفوا في الظاهر اسباب التناقض الى علاج منتزع من طبيعة تلك
الاسباب حسب نظرياتهم من حيث ان معرفة العلة تكشف هوية الدواء
ويكون الخلاص من الشر في نظر هؤلاء بالخلاص من السبب المادي
المصالحي الذي يغري بالشر. والملحوظ على هذا المنحى الفكري شيئان
في غاية الخطورة أولهما هو ان صفة الشر مفترضة في هذه
النظرية كما كانت مفترضة في الأخذ بالسبب الطبيعي والفرق
بينهما هو القول بامكان علاج الشر عن سبيل منهج سببه وهو الخلاف
على المصالحة وهم يظنون ان علاج سبب من الأسباب في سنة
١٩٩٠ لا يضمن عدم نشوء سبب جديد بعد ذلك بأيام فالمصالح في
تجدد وتكاثر مستمرين ولا يحاط قطعاً بالصورة التي سيكون
عليها الاجتماع بعد مائة سنة كي يمكن تصور المصالح التي تختلف
فيها الناس حتى يتسنى التهيؤ لدرء شرورها بالعلاج المناسب منذ
اليوم بل لا حاجة لنركن الى احتمالات المستقبل في تجدد المصالح
وتكاثرها ويكفي أن نتمثل استحالة رضا الناس في توزيع العمل
والمناصب والمسؤوليات والمكافآت عليهم حتى بافتراض ان
ذلك يتم بقسطاس مصنوع من محض العدالة او بالقرعة التي لا
غش فيها أو بحسب الكفاءة الموثوق منها وكل هذا كلام مسطور

في الورق ينقاد بانقياد القلم لحركة اصابعي فتراه مع ذلك لا يتلاءم مع الواقع الذي نتصوره وهو شيء على بعد سحيق من الواقع الذي يتنفس و يتبدل و يتجدد و يضطرم فتجيش فيه النفوس والقلوب بالرغبة و تقمع لاستحالة اشباعها فتعيش على قلق ولولا خوفنا من الكرباج الرفوي عليخ لآل بنا القلق الدائم الى انفجار .

والشيء الثاني هو انهم ينسون الانسان كسبب مباشر للشر والخير . ولست اتوسع هنا في الكلام عن تنوع طباع الناس وقدراتهم على انماط و درجات في القوة و الضعف و الصلاح والفساد و الرفض و القبول وتنوع اجتهاداتهم و نزعاتهم في الحيد والشر وما يجب و ما لا يجب وفي الوسائل المؤدية الى المطلوب و المانعة من المكروه و أناس مع منطق اولئك المفكرين في التماس العلاج من توفير الاشباع المادي الكافي الشافي واضعين ميلانهم الى نهاية المدى فأصدهم اخيرا أمام نتائج لم تكن متصورة ولا مطلوبة في مبدأ صياغة فلسفاتهم فينتهون الى ضبط و تحجيم رغبات الناس و حاجاتهم في نطاق ما تستطيع فلسفاتهم من توفير الاشباعات المادية فاذا عجزت عن تقديم السيارة الواحدة للاسرة الواحدة الزمت الناس ان ترضى بالواحدة للأسرتين و للثلاث و للعشر على حسب النقص في اعداد السيارات المصنوعة و سيروج تجنيد السيارات العامة في الاذهان و تقبيح الاستئثار الفردي بالسيارة لما فيه من الانانية و حب الذات فتفتقد الدعاوى العريضة من (توفير الحاجات) الى (كبح الرغبات) طريقاً للوصول بالبشرية الى الجنة الموعودة . ولست اتطرق هنا الى دور الحافز الفردي

في نجاح المشاريع وكيف ان قتله بذريعة تأصيل (روح الجماعة) في الحلول الجذرية يقتل الابداع والوفرة ولا يخلق عوضه في اية صورة كانت فذلك له مقام آخر واعود الى ما كنت بصدد الاستطراد فيه فاقول من باب تنويع الكلام في الموضوع انى سمعت شخصا ذكيا قبل اكثر من خمس عشرة سنة يقول ان الفلسفات التي تبالغ في فكرة (التأميم) تأتي فتؤمم (الأنسان) اولا وقبل كل شئ بتجريده من القدرة على النقد والرفض والاختيار بحصر وسائل التعبير و النشر كلها في يد السلطة فيصبح تأميم مقتنياته و اهمال رغباته بعد ذلك تحصيل حاصل واستخلص من هذا حقيقة أخرى كثيرا ما تردد الفلسفات الآخذة بفكرة التناقض والفواسخ والتغيير المصالحي وهي ان مجتمعات الحلول الجذرية لا تنشأ في ازمات اقتصادية ويؤخذ هذا على انه دليل الصواب ~~الفاضح~~ المأخوذ به كل تناقضاتها. والواقع الأمر هو ان اختفاء الأزمة يعود الى اختفاء الارادة والقدرة على الرفض والطلب في تلك المجتمعات ذلك ان اظهار الرغبة فيما يخالف القوانين والانظمة السائدة محرم من حيث الاساس وهلف بأن الشعب الذي لا تناقض فيه لا يجد نقصا يدفعه الى الأشياء فكيف يرتد على النظام الذي خلقه بنفسه!!

الأزمات تحدث في المجتمعات المتأثرة ذات القدرة على التعبير عن رغباتها والمالكة للوسائل التي تمكنها من الافصاح. ولا يدخل في هذا الحساب حالات القهر العنصري والدين والاحتلال الاجنبي التي تتجاوز في أسبابها عامل الأقتصاد وتأتي مداخلات

القوى الكبرى و اتباعها بخلق ظروف او بذل أعداد و عتدة وارشادات تساعد على انبعاث المعارضات والانتفاضات لسبب حقيقي أو مفتعل و نسا هنا في صدد توزيع اللوم و منح المباركة حتى نحاول الاحاطة بمثل هذه الأحوال المتباينة فنوفيها حقها و لكن يظل الاقتصاد بوصفه سببا للأزمة سمة المجتمعات المتقدمة القادرة على الرفض و القبول و المالكة لحق المطالبة.

ان نصيبي من هم هذه الأحوال يتعاظم بفعل فلسفة آمنت بها و هي ان الاخذ بالسبب الطبيعي والسبب المصلحي لانبعاث المآسي يقود الطبيب المداوي الى الدوران حول العلاج فلا يصله لأن المركز الذي يتحور حوله ليس هو مكمن العلاج. فكما ان الارتفاع بجدران السجون لا يعالج سبب الجريمة كذلك الأمر بذيل البضائع والمنتجات و المصالح لا ينزع الشر من الصدور. علاج الشر لا يأتي الا من علاج البشر و أقصد بذلك وجوب الرجوع الى اسباب ما يقع من خير و شر في المجتمع الى (الانسان) نفسه باعتباره علة العلل لكل حدث فهو نفسه يخلق البضائع التي يحاول المحاولون تغيير سلوكه بها. لو أن هذه البضائع كانت تنزل على البشر من المريخ جاهزة للاستعمال مشحونة بمعاني الغواية و الهداية لكان من المعقول ان نعلل تصرفه على ضوء ايحاءات هذه البضائع تعليلا ماديا طبيعيا واضح السبب، لكنها لا تنزل من المريخ و انما هي ترشح من دماغ الانسان و فطنته و تكون قد عاشت بعده في صورة مادة اولية مرت بالمراحل التصنيعية المتتابعة تحت سمعه و بصره و تؤول الى السوق حيث يرفضها بعض الناس

و يقبل عليها الآخرون. ثم ان انجذابه الى و نفوره منها ليس استجابة آلية محتومة فالبشر نفسه يمر بمراحل العمر المختلفة و لكل عمر بضاعة توافقه أو تفيده و قد يجرن احدهم فيرفض ما يوافقه و يأتي الوالد فيشتري لطفله لا لنفسه. و حكاية وكالة الوالدين عن صغارهما في تقدير مصالحهم و مقام ذلك من نظرية المصالح و التناقضات حكاية ليست هينة أو مختصرة و اقول فيها بأقصى ما يمكن من اختزال الألفاظ انه لا يمكن غير التفسير البشري بوضع هذه المسألة في موضعها الحقيقي بلا قلق او افتعال.. ارجو الاسترسال فاقول انه من الغفلة ان نأخذ بالتعميم في مسألة الصناعة فلا يصح القول هكذا ببساطة ان البشر يصنع المصنوعات و يخترع المخترعات فان قلة قليلة منه يخترعون و يصنعون لأن القدرة على الابتداع قابلية نادرة و يلزمها الأوكان حتى تؤدي دورها الحضاري فربما هلك المخترع في توفير مستلزماته أو أهلكه من لا يعجبه العجب من ذوي السلطة أو الطمع أو العدوان. والقدرة على الصنعة مشروطة بشروط لا تتحقق لكل من كتب و دب فقد بقي الفلاح يدبو وراء محراثه لمدى زمني قارب ستة آلاف سنة دون أن يفكر في تقديمه درجة واحدة في الفاعلية فالمقولة المادية التقليدية بان العمل أساس تقدم الانسان [المقولة تقول ان العمل يصنع الانسان] كلام عالمي مفرط في التقعر فالفلاح حتى يومنا هذا لم يتعلم صنع محاريثه فما افاده في ذلك عمل خمسة او ستة الاف سنة وبقي يشتريها جاهزة من المدينة. والبشر في العمر الواحد و الطبقة الواحدة

والمهنة الواحدة لا يتماثلون في رغباتهم فان عمر بن عبد العزيز و المهاتما غاندي لم يشتركا في التجبر والتكبر و تجييش الجيوش ولكن شعرهما كان ينظم القصيد و يعزف الجيتار على طريق روما. و تأتي الخلفية الثقافية بما فيها الدين فتطغى في الناس رغبة وتذكي فيهم رغبة أخرى فتتغير خارطة المصنوعات من بلد الى بلد بتغير الخلفيات والتربيات والأيحاءات. قد تجد عبقريا يستخرج من نواميس الفيزياء و الكيمياء اساس اختراع رائع حتى اذا انتهى منه تلقفته الشركات و الحكومات لتستغله في الربح وربما حولته عن وجهته الأصلية الشريفة الى وجهة يستنكرها ضمير المخترع. و المادة مهما يكن شأنها من الأعتبار والخطورة لا تكون مغرية لأرادة البشر اذا لم يغرها ولا ينشط البحار اذا لم يقدر عليها كالتقاط في اعماق البحار درب بضاعة جيدة سقطت وبارت لسوء عرضها او بسبب المنافسة القاصدة او عدم ملاءمة اوان العرض. ان مهارات الانسان و قدراته على الخلق و حسن تصرفه في نواميس العرض والطلب و ادراكه للذوق العام و للنزوة الوقتية تعمل من جهة بقابلية الرغبة و الحاجة و قوانين الاعراف والدين و البيئة و محمل الخلفية الثقافية للناس وما لا يحصى يحضرني من عوامل مماثلة في الجهة الأخرى وتدخل في مواجهة هذين العاملين فنون لا حصر لها في المنافسة والاحتكار والخزن وتنويع الموديل ما بين ساخن ومعتدل وحتى وصارخ قبل ان ننسى بيت شفة في القول بأن الظروف المادية او المصلحية اقتضت كذا وكذا وقد وجدنا هذه الظروف كلها من صنع البشر و تخمينه و تقديره خاضعة لأرادته العينية أو

الذكية . الخيرة او الشريرة فكيف نجرأ ان نشارع الى (المصلحة) او عموم المادة لنغزو البرلمان الحوافز والروافض وضروب التصرف من تحريم و تحليل و تجليل وتحقير و رفض وقبول وتصور البشر تجاهها مخلوقاً مسحوباً من كينته او مكبلا باصفاد غير مرئية الى قوى الجذب والدفع من تلك المصالح والمواد ونحن نعلم اول ما نعلم انه لا مصلحة ولا مصنوع ولا شارع ولا بايع او قانون او نظام أو دستور او عرف خارج وجود البشر و صفاته الهابطة والعالية ! كيف نعتبر القصاب مجذوباً و الذبيحة جاذباً ؟ ان التحليل المادي المصلحي يجعلنا نعتبر البشر في صيد الثعلب بالفخ اسيراً اسراً مضاعفاً : مرة للثعلب طلباً للحمه وفروه ومرة للفخ باضطراره الى استعماله في الصيد . وفي صنع الحرير يكون اسير دودة القز و فروع الشجر غذاءً لها واسير الحاجات المستعملة في جمع شرنجها و غزله و بيعه وما لا يحصى من صيغياته وتنتصب الدودة و الاصباغ والانوال و قبلها انتصب الثعلب والفخ قائماً على ارادة البشر . والغريب في أعماء الأشياع واصحاب التفسيرات المادية المصلحية أنهم لا يعتبرون الذئب اسير الثعلب ولا العصفور اسير الدودة في عملية الصيد والأقتيات والسبب الاوحد المتصور لموقفهم المقلوب هذا هو انهم لا يحبون للذئب و العصفور تأريخاً و اجتماعاً وتطوراً حضارياً ليردوه الى الاسباب المادية المصلحية فلا بأس في ترك الذئب يفترس الثعلب على هواه و ليكن هو الجاذب والفاعل بدافع الجوع وبالقدرة على الافتراس . ثم انهم لا يلتفتون الى عامل (التناقض) في الذي

بين الذئب والثعلب من حيث انه - اى التناقض - لا يؤدى الى تطور الذئب كما يزعمون انه الباعث على تطور البشر، وكذلك يكتفون فى سلبية الذئب والقلق وسائر البهائم تجاه ظواهر الجو واطياف السماء فلا تحوك حولها قصص الاساطير وبيوت القريض وضروبا من الخيال والنجوى كما يفعل البشر ولكنهم اذ يجدون البشر قد عبد ظواهر الطبيعة وقرب القرابين للبراكين وصنع الطواطم والطلاسم دفعاً للأذى المغيبات فقد صار لزاما عليهم ان يشكوا وعيه وإرادته بخيوط الأنجذاب الى هذه الظواهر والخضوع لسيطرتها عليه. انهم سامحهم الله يكبلون ارادته فى كل شئ يبتدعه عن سبيل تعليل تصرفه بجريه وراء اقتضاء ما يبتدع فجعلوه اسير الأقتضاء الذى هو خالقه واسير السياسة والبيئة والتناقض والحوافز والردود فهو فى تعليلاتهم حشرة وقعت فى نسيج العنكبوت وتكون البهائم من باب القياس قد تحررت من قيود الأسر هذه لانعدامها فى دنيا البهائم !! أحرياء

لقد كان العلماء الآخذون بالتفسير المادى المصالحى ان يلحوا البشر اعتباراً خاصاً فى تقديم القربان الى البركان والطوفان دفعا لشرهما بسبب ما فى عمله هذا من زيادة فهم امتازهما على البهائم فقد ربط بين العقتب وبين الترضية بالقربان فى هياج البركان قياساً من اطفاء غضب الاقرباء من حوله بالهدية او الاستماح فان ادراكه لربط الترضية بالهدية دفعاً لشر لا يدفع قبل خمسين الف سنة هو الذى نما وسما فيه الى اختراع مانعة الصواعق وآلة قياس الزلازل. لقد كان البشر

والبقر عاجزين عن الطيران وكان كلاهما أسير البيئة وقوانين الطبيعة ولكن الوعي البشري الذي يستوقفه الفلاسفة لحساب المادة الميتة هو الذي دفعه في مسالك المقارنات والموازنات فانتقل من ملاحظة ظاهرة ارتفاع القش والقطن والغبار على متن الريح الى التفكير في الأحتيال على وزنه المانع من الطيران بوسيلة تسخير الهواء في الارتفاع به عن الأرض. اني ارى على عكس مايرى اصحاب التفسير المادي المصلحي ان البشر في تقديمه القربان للبركان امتاز به عن البهائم مرتين وخرج عن (الشيئية) مرتين فهو قد ربط بين الترضية وبين الهدية طلباً للأمان ثم انه كان قد ربط بين ظاهرة البركان وبين وجود ارادة وراء ثورانه: نعم انه اخطأ في كلا الامرين فقد كان البركان ميتا فلا يملك سبيلا يمكن ترضيته و اخطأ في تصور ارادة خاصة وراء ثورانه لانه كان قاصراً عن ادراك العوامل الفيزيائية المؤدية بالبركان الى الثوران ولكن المهم في كلا الخطأين ان البشر وحده دون سائر الموجودات فكر في كيفية اتقاء شر لا يقاوم أما السلبية وعدم الأنشغال فهو أمر خليق بالحجر والشجر والبقر وسيظل كذلك حتى ابد الآبدين.

ليس هنى منبعثا من تلبية الحاجات والمقتنيات ماتستحق من اعتبار في انشغال شهية الانسان وأمله وطمعه بها فان هذه الاشياء بحد ذاتها مظهر اعتلاء البشر بالسيطرة على المادة وآية فاعليته في دنياه وما صنعها ابتداء الا لسد حاجاته ورغباته وهي تتطور الى الأحسن بتقدم مجالات البشر وتتنوع اصنافها بتنوع الرغبات على مختلف الشكول والالوان والأحجام، و

لكن هي تنبعث من الاجتهادات الفلسفية العجيبة الغريبة في تصوير ساحة المصنوعات والمنتوجات على أنها معرض يعلن فيه عن تابعية البشر ومتبوعية السلع ويقاع من افتيال الناس على السلع دليلا على صحة تعليل تصرفهم بالسبب المادي المصلحي على نحو يعطل دور خالق تلك السلع بتصويره تابعا لا متبوعا ومسوبا لا صاحبا ومذكرها لا مختارا ومرآة عاكسة لا واعيا. اذا كان في السلع وسائر المعروضات المرغوبة قوة جذب وقهر لارادة الانسان فان هذه القوة تعود لصانع السلعة وعارضها والمروج لها ومختكرها والمتاجر فيها اي انها تعود للبشر نفسه وليس لمصنوعاته فالسلع لم تكن موجودة أصلا وما كانت لتوجد مستقبلا لولا مهارة البشر ولم تحل مسافة الاف الاميال لتعرض في سوق الحلة أو بيروت الا ان تجذب شهية سكان المدينتين. فهنا ارادات ورغبات بشرية تتعاون بالعرض والطلب على اعمار السوق بالسلع النافعة او الضارة وتدخل هذه الارادات والرغبات من اطراف معادلات البيع والشراء في لعبة اقناع او اخضاع متبادلة تمارسها كل جهة كما تمارس الشطرنج أو المبارزة بالسيف لحمل الجهة الأخرى على الرضا بشرطها وقد تدخل الدولة طرفا ثالثا أو ينبعث الكراس او يقع ما لا يحاط به من افاعيل البشر لتزويج البضاعة أو تعطيلها أو إفنائها. انك اذا التقطت اي خيط للتجاذب بين اطراف المتعاملين مع السلعة وجدته يمتد عمقا الى اغوار ضاربة في بنية الجماعة وضمير الفرد ووجدت البضاعة تتذبذب مع الخيط في انشداد الارادات اليه أو شدها له و

البضاعة أيتم ماتكون فقدانا للارادة و عجزا عن الرفض و القبول و مطاوعة لما يراد بها او لايراد. فاذا كان مقدرا للتعليلات المادية وغير المادية ان تنهض بتفسير سلوك الانسان وجب أن تتقلك بالحقائق الفاعلة في الدنيا الفسيحة حول البشر فتقول ان البشري حين يريد تحريك رغبات الناس أو قهر ارادتهم يستعين في ذلك مهارته و قدرته على الاقناع والاقناع عن سبيل الوسائل المتاحة له في تحقيق ذلك منها الاغراء بالسلعة المشتهاة ما بين مصنوعة وغير مصنوعة ومنها استعمال القوة ومنها المنطق ومنها الاخلاقيات ومنها الشهوة وغير الدعاوي ومنها المعتقدات والايديولوجيات ومنها التحبيب و التكريه ومنها.. ومنها ما لايخرج قطعا عن اطار ما يبتدعه الانسان من صنوف الوسائل فهو نفسه خادع ومخدوع وساجن وسجين و وقاتل ومقتول وتابع ومتبوع وطيب وشرير وعالم وجاهل و.. و.. و.. ولكل منهم اسلوبه في الاقناع والاقتناع وفي الاقناع و الاذعان وفي الرفض والقبول فاذا قال قائل ان الناس المتماثلين في احوالهم يتماثلون في تصرفاتهم فيقتربون بذلك من ضمور الارادة الذاتية الشاخصة و انتفاء التميز الفردي فذلك قول يكشف عن تحزم قائله بقمع شخصية الانسان و يبدو كمن التزم على نفسه امام محكمة الفلسفات بالبرهنة على قوة (الاحوال) و تفاصة (الارادة والاختيار). والواقع هو ان مثل هذا الرأي ينبع ابتداء من تمكن التفسير المادي في العقول والا لكان التدليل على فقدان الارادة والاختيار لدى غير البشر اسهل بكثير من التصدي لتفسير ما هو ظاهر من ارادة البشر واختياره في غير حالات

القمر. انه اسهل عليك أن ترى القميص فاقداً للارادة من ان ترى لابسه منقاداً الى القميص، واقرب الى المعقول ان تحكم بطاعة سنبلة القمح لحاصدها من ان تصادر ارادة الحاصد امام ارادة السنبلة. ان التفسير المادي نشيط وثابر في طي خمسين الف سنة من جهد البشر في الانتقال من حياة الكهوف الى التحليق بالطائرة ويخادع ذهنك في طمس قابليته المميزة له كي يحملك على تقبل الطائرة طرفاً أقوى في معادلات التطور باعتباره للطائرة حاجة مادية من حاجات المجتمع في عصر الكهرباء اغرت الانسان وسيرته وقسرته وعلقته من عرقوبه في صنارة مذهب التناقض. ولا اجد بأساً في الرجوع الى مناقشة القول بتماثل تصرف الناس في الأحوال المتماثلة لألقي عليه شيئاً من الضوء حسب فهمي: فالناس في الأحوال المتماثلة لا يتماثلون كلهم لأنهم ليسوا مواد جامدة مسيرة بالمساتير المحددة الازلية الأبدية وقد سبق لي ان قلت ان الاقوام من الاديان المختلفة او العقيدة السياسية المختلفة يسكنون مدينة واحدة فيختلفون اشد الاختلاف رغم ان الزراعة والصناعة والسوق والتجارة شيء واحد للجميع بل ان الأخوين الشقيقين في البيت الواحد لا يتماثلان في كل الاحوال والأوقات حتى ولو تماثلت ظروفهما في البيت والبيئة. اما اذا فرضنا المستحيل وتحقق التماثل المطلق للناس في كل شيء يخطر على البال ولم يحدث ما يرغم بعضهم على مخالفة رغبته فانه من المضحك عندئذ الا يتماثلوا لاننا نكون عندئذ في مواجهة معادلة بسيطة لا مجهول فيها مثل (١ + ١ = ٤ - ٢). أما إذا حصل

إذاً

انهم تفاوتوا في حجم المعدة فقط أبدأ الاختلاف والتغاير في الشهية وكمية المأكول ودرجة استواء الطبخ وكونه أشهى وبرودة الموطأ وفقاس الفانيلة والقميص والحاجة الى الحوائج من عدمها ـ الخ وليفعل التناقض ما يروق له فانه مرغم على ان يتكيف مع حجم معدات الناس ويتلون بنوع شهياتهم وينقاد الى مقدار سوائل الهضم من معدة الى معدة. فاذا اضيف اختلاف قوة النظر الى اختلاف حجم المعدة زادت مشاكل التناقض بنسبة هندسية ولو لحقهما تفاوت في القامات اختار التناقض ماذا يفعل مع هؤلاء الذين كانوا مريحين متماثلين...

الواقع هو اني حائر في كيفية الاحاطة بفاعلية الانسان الى جانب مفعولية وموضوعية غيره من الموجودات أرضا وماء وسماءً خلال مئات الوف السنين منذ ان تفتق مخه عن عامل (العقل) الذي ميزه تمييزا حاسماً عما سواه ذلك ان التشابكات التي تحدث في بنية المجتمع وتصرفه وتصرف الفرد الواحد تبحث على الاندهاش وتطبيك ارقاماً لنوع السلوك سلبا وايجاباً تتذكرني الى حدما يروى من ان مخترع الشطرنج طلب من الملك الذي أراد ان يكافئه بأن يملأ له خانات الشطرنج بالشعير على ان يبدأ الخانة الأولى بحبة واحدة ويضاعف الحبة في الخانة الثانية فيضاعفها في الثالثة والرابعة حتى يأتي على نهاية خاناته.. فوجدوا أن شعير الارض كله لا يكفي لهذه العملية التافهة في ظاهرها. واستعين هنا في توضيحي بغرضي من استقبال التشابكات التي مر ذكرها من بضعة اسطر

بما أذكره من كلام ورد ضمن خطاب واحد من رؤساء المجمع العلمي البريطاني ضمنه الهدية السنوية لمجلة المقطم المصرية في أوائل الثلاثينات فقد قال في تصوير لغز الحياة انه ان كان في امكان علماء الفلك ان يحدثنا منذ الآن على وجه الدقة والصواب عن عدد المرات التي يحدث فيها الخسوف والكسوف الى مئة الف سنة وما بعدها فانه ليس في إمكان علماء الأرض كافة من جميع العلوم مجتمعين متعاونين ان يتنبأوا بتصرف ذبابة يطلقونها في غرفة.. فأقول انا بعد اكثر من نصف قرن مر على تلاوتي لهذا الكلام المنشور: يا ترى كيف يكون التنبؤ بتصرف خليات النحل البشرية من مدن المليونين والعشرة ملايين نسمة المشحونة هي وأفرادها بتعقيدات التشابكات الحاصلة من اختلاط ترددات اجتماعية وفردية بين تراثية وعصرية وعلمية واسطورية واقتصادية وفنية وكهربائية ومائية ومواصلاتية وقاعية وضغرية وحكومية واهلية ومختلطة وعقائدية وإلحادية وسياسية ومحلية وعالمية ومحشية وغير محشية وطاولية ورسمية وافيونية وتبغية وضيلية وراجية وسيارية وطيارية ونسوية ورجالية وعلامية ومدرسية وقضائية وحزبية سلطوية وحزبية اختفائية وترحاتية وحدية وحربية وسجنية وشرطية وضعة سرية تمتد كالظل أو ضيوط الطول والعرض تملأ لوحة الذهن التي تتلطخ ابتداءً بالذهن من مدير المدرسة وبين المتعفرت في الحارة ومن القبضايات و

العصابات و المهددين و دار شارات و علامات منذرة بالويل و الثبور أو يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون فتتبخر في هذا المرجل الفائر عقلانية دساتير التناقض و المصلحة و حسابات المنظرين على الورق الأملس .. دبابة واحدة تنطلق من أسر النظريات و التنبؤات و التوقعات فكيف بستة آلاف مليون بشري توزعوا على مئات الأوطان و الوف العقائد و الألسنة و مالا يعد من ضروب المشاكل ما بين فردية و وطنية و قومية و دولية و كونية و مالا نهاية له من تنوع المشارب و الميول و ضروب التسلية و أشكال الحرام و الحلال مع علمنا بأن كل فرد من اولئك المليارات خليق ان يتميز حتى عن صاحبه و شقيقه بنزعاته و قناعاته و عقله الباطن و الواعي و تجربته في الحياة و مايريحه و مالا يريحه و هو قابل للتميز في يومه عنه في أمسه تبعا لأطوار عمره و تغير نزعاته و اختلاف الايحاآت التي يتلقاها من المرشد و المضلل و ما تعترضه من صنوف المعوقات و الاصباطات أو عوامل التنشيط و التفاؤل و ما من أحد في هذه الدنيا استقام على وجهة معينة الا وكان محتملاً أن يستقيم على وجهة أخرى مغايرة لو شهيأ له أن يمر بتجربة مخالفة للتجربة التي تقولبت قناعاته اول مرة و ان شعرة واحدة يمكن ان تفصل بين اتجاهه الى الايمان بالغيب و الكفران به أو بين انتمائه لليسار أو لليمين بان يكون قد اعتنق في مقتبل العمر مؤمن او ملحد و يساري أو يميني وكم من الناس من يتزلزل في الداخل ايمانه وقد ينهار ايمانه بالمرة و لكنه يحجل من الظهور بغير المظهر الذي آنسه منه الآخرون

وكم منهم من يبذل ايمانه ببضعة دراهم ومنهم من يبذل دمه ولا يغير ايمانه .. انك اذا بحثت في تصرف المغرم بالقمار والمغرم بالمكايد والمغرم بالحمام والمغرم بالملاهي والمغرم بالكذب والمغرم بالغيب والمغرم بالهوى والمغرم بالتسكع والمغرم بالتعالي والمغرمين بكل ضروب المتناقضات لعجبت اي عجب مما تكتشفه أمراً لا تخطر على ذهن الفيلسوف فان أحدهم قد يبخل على وطنه بدرهم واحد ولكنه يبذل روحه في إطفاء رغبة سخيفة تهبط نفسه الى السرقة والقتل والتحريق وقد يتبلد حس احدهم فلا تحركه مصائب الارض واسقام ولا تستهويه مباهج الاولين والآخرين . ان الذي يعتاد المخدر يبيع نفسه وأمه وأباه في توفير (الكيف) وقد يفضل المنتمي الى فكرة سياسية معينة ما يفعله المدمن من الضلالات ولن تعدم أن تجد المؤمن بالافكار السامية وقد دفعه حماسه المبالغ فيه الى الافتتان بقتل كل ما لا يؤمن مثله بالسلام و الرحمة .. ملايين ملايين المرهوسين بالافكار المتطرفة لا يترددون في تغيير الارض بمن فيها وما فيها تطهيراً لها من إثم البشر . و الاستطراد في هذا الباب لا ينتهي الى غاية وكل كوة للنظر تنفتح لعين الناظر المستطلع في استطراده ترى العجب من أمر هذا المخلوق الذي تحاول النظريات نصب شباك التضليل والتفسير لتصرفه حوله لجعل ارادته و تصرفه و أمله مصدقة لتوقعاتها فلا تفوز واحدة منها بطائل منه الا ما كان متصلاً من استغلال العصا او الاقناع أو التضليل ولا نهاية للانواع المتعددة من هذه الوسائل . فالقول بتماثل الناس لأنهم بشر كلام في سذاجة

ن تيصور ان نجوم السماء متجاورة فى واقعها كما تبدو فى النظر.
والذين يقولون فى ظاهر القول بتناهى البشر لا يتركون البشر للقوانين
التى اختقوها حسب زعمهم من مقتضيات الطبائع بل هم اشد اساءة
و المسيطرين فى تكبيل الارادات بالموانع والروادع لانهم يعلمون يقينا ان
الكلام الجميل الذى يصوغونه ببراعة من الصنع السياسية المستعملة فى
تبرير ما يتبعها من صنوف الحظر والتحجيم والردع والتوصيه. وتجد فى
الطرف المناقض لهذا ان الذين يعترفون بتفاوت البشر يأتون بالقوانين
ما هو مستنتج من رغبات الناس فاذا تغيرت الرغبة العامة تغيرت
القوانين تبعا لذلك وتكون وسائل التعبير عن الذات قد تمهدت وتيسرت
لكل الناس قبل ان يكون اختبار الرغبات موضوع بحث. واضح ان حالة
اجتماعية تعتبر فيها الرغبات والارادات لا تقدر قطعاً استعمال الكرباج
و الوعيد بالمصائب فالمبنة الأولى فى بنيان اجتماعى يؤسس على احترام
الارادات هى مبدأ احترام ذاتية الفرد وهو يقتضى ابتداءً الاعتراف بوجود
تفاوت فى الرأى والرغبة والنزوع والنظرة المستقبلية ولايكون ذلك
الا فى ظل حالة اجتماعية ارتاحت الى مبدأ (عش ودع غيرك يعيش)
فى اقل ما يمكن من احتكاك واصطدام بين استعمال واستعمال للرأى
فيكون احترام الشخص برأيه متضمناً اقراره لاحترام الآخرين بآرائهم،
وكل اتجاه الى وصية اخرى فى ممارسة حق الرأى ستؤول بالبداهة الى
اطلاق نظرية التناقض كما تعمل عملها فى اختزال الجهة القوية بجميع
المخالفين لرأى الرأى ويا عجبى لمصير البشرية لو أن هذه النظرية كان
فى استطاعة تطبيقها على ايام السومريين والفراعنة فاستمرت عملية
الاختزال جيلا بعد جيل تطحن وتقطع وتنزل فى طلاقة لاعائق

يعوقها . نحن نعلم بالبداهة ان الأختزالات لم تكن قليلة ولا هينة عبر الزمان الملئ بالكوارث ولكن الذي جرى في التأريخ من اختزال و قمع وقلع كانا يجريان بلا نظرية تبرره وتدعو اليه وتحدد الأعداد المطلوبة ازالتها عن عمد وسبق إصرار الا في حالات مؤسية تتحكم بها العقيدة المتزمتة المستغرقة في نفسها ثم ان الأخذ بمشروعية الاختزال عن سبيل الايمان بقدسية مقتضى التناقض لا يبقى اي متنفس يرتاح فيه الناس و ينقادون الى دواعي المهادنة والمعايشة وتبادل المصالح فكل بيت في الحارة يمكن أن يكون مترصداً لاختزال جاره بسبب من تعارض المصلحة . ومن مثل هذا المنطلق كانت تجري المذابح الدينية فينشط فيها الى القتل أناس ماذ بحوا في حياتهم دجاجة وما اكثر ما انقرضت عشيرة مغلوبة على امرها لنشوء عداوة بينها وبين عشيرة اقوى منها اذكتها الاعتبارات الماسة بالكرامة بعدة كلية عن دواعي المصلحة المادية وربما انسحبت العشيرة الغالبة من ارض العشيرة المغلوبة و احرقت ممتلكاتها ومقتنياتها الغالية من باب التعالي على تهمة الشراهة ومن باب التمسك (بالحلق الرضيع) المتحرج من الاسعاف الى تداولات المدهورين . ان الاستهانة بالأرواح والأعراض لا تكون مقبولة لدى يقترفها الا حين تسقط من نظره القيم الاعتبارية التي كانت معترفاً بالتضحية فليس من السهل ان تمتد يد الشيخ الى عرض كائن آدمي اذا كان في ضميره اي قدر من قدسية ذلك العرض ولا يتعب المعتدي نفسه في هدم دار أو ردم بئر أو قطع شجرة حتى تكون هذه الأشياء جاوزت في سقوطها حدود انعدام القيمة و الاعتبار في نظر المعتدي فالراجح انها تمثل (قيمة ملوثة) وجبت

اذا لقيها و إلا لأزاح نفسه مكتفياً بقتل صاحبه .. ان الانتهاء من الصور التي يمكن أن تتم عليها الاعتداءات دون تدخل تعارض المصلحة المادية ~~[illegible]~~ أمر خارج الأمكان وهنا مالا يمتد اليه الكيان حتى يقع في الحقيقة. ولا يعني تعداد هذه الصور او عدم امكان تعدادها ان الوجود شر متصل فلو شئنا لعرضنا صوراً للفضائل تولهم بان الدنيا كلها خير متصل ولكن الذي ارمي اليه في ضم الصور المتباينة بعضها الى بعض هو فضل تمهيد لقبول ما اقوله من ان مصدر العلل في فضيلة ورذيلة هو البشر نفسه فانه ما من تعليل لتصرفاته بالمصلحة و بالتناقض وبأية علة اخرى يمكن ان يصيب الهدف اذا لم يعتبر البشر عاملاً أول و الأطراف الاخرى معادلة معمولات، فانك لا تستطيع تحريك شهية الانسان بأطعمة الجنة اذا كان مريضاً او اذا كان يشتهي غيرها او اذا كانت محرمة عليه في دينه و لا يمكن المزاوجة بأجمل الحسناوات اذا كان لفلاً أو شيخاً طاعناً في السن أو متخنثاً أو ناقص الأشتهاء أو ملتزماً بالسلوك السوي وخذ بقية الكوافر واحداً واحداً تجدها كلها بلا استثناء معطلة عن التأثير ما لم يكن الشخص المطلوب المزاوجة راغباً فيما يعرض عليه. وانا اذ أقول هذا لا أريد و لا يمكن ان يخطر على بالي أن أنفي خطورة المغريات والروادع فالدنيا من حول الانسان ثلاثة أصناف: صنف محبوب و صنف منفور وصنف محايد ولكن المحبوبية و المنفورية لا تتحقق في البضاعة لأمر مفروغ منه فقد تختلف المحبوبات و المنفورات و المحايدات في الأذواق وفي الأعراف وفي الدساتير ومن حال الى حال ومن سنة الى اخرى و علة التغير هي تغير رغبة الانسان أو حاله

أو إمكانه لنا مع العلم بأن ما يطرأ على السلع من تغير وتنوع وكثرة وقلة في العرض كله من صنع البشر فاذا كان في السلعة نفع اغراء قوي أو ضعيف فهو بدعة بشرية الا في حالات أصبحت نادرة كأن يندر جلد الثعلب ومن السمك ولحم الحيتان وما اليها من موجودات الطبيعة وهي مع ذلك وبهاتين قليلة أو كثيرة لا تتقدم الى السوق من ذات نفسها فلا بد من بشر يصطادها أو يجمعها ثم يتصرف فيها بفنون الأغراء والتصنيع.

من القائلين والكاتبين اناس يشبهون مقام الفرد في بنية المجتمع بمقام العضو في الجسم الحي وهو تشبيه لطيف وشيع في وجوه كثيرة من حيث الترغيب على التعاون وربط المصالح بعضها ببعض ولكن التشبيه بحد ذاته مع فارق كبير ذلك ان اجهزة الجسم كلها حتى أصغر خلية فيها مجندة ابتداءً لارادة الحياة وتتعاون باتقان رسوم في دقة الكيوتر على حين يتصرف الفرد ضمن تشابكات اجتماعية معقدة فيها التعاون والاختلاف والتصادم والتبرج والابتزاز وقد يموت ألوف الافراد أو افراد جمة من المجموعات البشرية دون ان يستدعي ذلك موت البقية التي لم تتأثر بها شيء بسبب الموت ولكن وقوف القلب او الدماغ أو الرئة عن العمل يؤدي الى موت الجسم كله في دقائق فمن الارتباط الاجتماعي تكون تكون الوشائج اعتبارية وليست عضوية فيمكن التخلي عنها أو صرف وجهتها الى الأسوأ أو الأحسن وعضو الجماعة قادر على الاختيار والتردد وليست اجهزة الجسم تملك خياراً.. الى آخر قائمة الفوارق بين الحالتين ولكن تبقى حقيقة خطيرة جديرة بالملاحظة وهي انه يقدر توقف سلامة الفرد على سلامة الأفراد الآخرين وعلى سلامة الجماعة تكون

درجة التطور وقوة الحضارة ~~فتقل الحاجة~~ ~~الحاجة~~ ~~الحاجة~~ ويتولد الشعور بالمسؤولية واحترام القوانين والضوابط فتقل الحاجة الى اسباب الردع وقمع الشخصية. ولا ينبغي ان ننسى لحظة واحدة ان تفاوت المجتمعات في الحضارة يعود الى تفاوت بشرها لا الى عمارتها وقتريناتها فما نشأت هذه المنشآت كما ينمو النبات في سفوح التلال وانما ولدتها عبقرية انسان اطرد تقدمه في العلم والفن والتكنيك فرفع معه مستوى الشارع والمدرسة والمطعم ولو انك بنيت عمارة مكيفة في الحمور أو في شعاب الجبل جعلت سكان تلك المناطق في حيرة من أمرها فليس البنيان أو المصنوع استاذا يعلم الناس كيف يتصرفون. ولو تتبعت تصرف الفرد من مجتمعات متباينة الحضارة ودرجة التقدم من صبحه حتى منامه لوجدت ما يحيّرك من تباينه وتنوعه فقد تجد في بلد ما اكثر الوقت مصروفا في امور لا تجدي كالانشغال بالكحل أو بقتل الوقت في الالعاب مألوفة او بالتكلع والنرجلة الفارغة وترى في عامة الاقطار ناسا كثيرين دائبين في الصلاة وقراءة الادعية التي هي من وجهة نظر الفلسفة العصرية عبث من مواليد ايام الجهل والضلال قبل عشرات القرون. والشباب في اقطار العالم يقضي في الالعاب والموسيقى والرقص والغناء وفي صنوف تلطيف المزاج بما لا يتلاءم مع المصلحة الاقتصادية أو مقتضيات الدراسة. فليس الانسان هو ذلك المخلوق الذي تقرأه في الكتب كائنا من مخلوقات خلية النحل والنمل تقضي عمرها في ضم الحبة الى الحبة أو نزح الشمع بالعسل فهو معمر مدبر، نشط كسلان، عابد ماكد، نائم يقظ ومتوزع على ما يفوق التعداد من الاهتمامات المتراوحة بين

ضد الاقصيين من الفساد والصلاح والقبح والكمال. ولو كان مخلوقا (مصلحيا) على مقاسات النظريات لما تمكن احد من تقدير ما كان يمكن ان يبلغ شأنه من مراتب التقدم والتأخر فاذا كان منقادا ومدار محض (المصلحة) فهو يكون بالضرورة مخلوقاً منطقياً تام العقلانية فيصبح بذلك شيئاً اشبه بالكمبيوتر من جهة كونه كامل التعقل وبالحيوانات الراقية من جهة كونه يملك غرائز حيوانية. ولك ان تتصور (كمبيوتر بغرائز) ماذا هو خليق أن يصنع فلا تصل من تصوراتك الى شيء موثوق منه حتى تقيسه الى حالة البشر التي تعرفه بصفاته وتردعاته فالحيوانات الغريزية من الصفات والطبائع المحيطة بكل انسانية ذات أثر خطير في رسم مصيره وسيره بوصفه فرداً وبوصفه منتمياً الى جماعة فخذ المثال في تتبع خيط واحد من خيوط سلوك انسان واحد ولنقل انه خيط غرامه بالملاعيب او ميله الى الجنس أو حرصه على الفلس او الدقة في مواعيده فسوف تجد العجب فيما يتكلفه من العرف على مطالب العادة المتحكمة فيه والمجازفة من اجلها وتوظيف امكاناته في الاتيانها واشباعها وياسوء حظ المجتمع الذي يكون قويه القادر مصابا بنزعة ناشئ او لوثة ملتاثة او رغبة مأفونة فالرواية تقول ان احداث جهات غضب لأمر لم يعجبه فطلب كذا الفاً من العيون الادمية فلما احصوا العيون وجدوا فيها نقص عينين اثنتين فأمر الشاه بقلع عيني الشخص الذي كان مكلفاً بالقربان الشاهاني إكمالا لنصاب الرقم المطلوب. ويمكن قياس الفرد المعتاد الى الفرد المتسلط من حيث انه حوايفنا يستعمل قوته المحدودة في هدم الذات او الغير على قدر تفاهة عقله. ولابد من ذكر

ملاحظة لا تخلو من وجاهة في صيغتها (التعقل والمصلحة) عند البشر فالمعروف ان اوائل العمر حتى طور الشباب الناضج هي مرحلة سابقة على طور العقلانية والمصلحية فهي طفولة وحداثة ومراهقة خالية من مسؤولية الانتاج والاضافة وتحري الربح وما الى ذلك. ويكون طور الشباب الناضج هو مرحلة اجتماع القدرة والاضافة في الانسان وتأتي بعدها سنوات لا تتعدى الخمس والعشرين مرحلة الكهولة التي هي اول الاضافة بلا قدرة إلّا لماما فالعمر الذي يجمع القوة الى الاضافة هو ما يقع بين بدايات فجة ونهايات مضمحلة باقتراض خلوه من العقد والموروثات والتشنجات وتاجتزال ما فيه من عبث وهدر ما خلا منها عمر قط. ونضيف الى الملاحظة المتقدمة ملاحظة اخرى تكملها وهي ان (الانسان) كانت في كنف من بلاد الله تعيش خارج المعادلات التي يقيم عليها الفيلسوف امكانه التاريخية والاجتماعية وهي ما زالت كذلك تتفاوت من بلد الى بلد. أما كيف تستقيم الأمور عموما بفضل هذا المتسع المحدود لاجتماع القوة والعقل في (الرجل) فان جوابه اولاً وقبل كل شيء هو انها ما استقامت قط على حسب ما تقتضيه الفلسفات وتنتظره من استجابة (الانسان) لحوافز المصلحة فلا كل الناس يستجيبون ولا كل الاستجابات مصلحية عقلانية ولكنها استقامت في ماضي الزمان على وجه من الوجوه لان الحياة والعيش ~~تطرد~~ كانت تطرد يوما بعد يوم دون ان تستدعي مشاغلة الفلسفات السياسية والاجتماعية بها فالدنيا كانت تدور من تلقاء نفسها بلا تدبير متقن والحكومات تسيّر الدولاب على قدر كفاءتها في العدل والظلم والناس تتعامل مع الموجود بما تملك من وسيلة الكسب وكانت العادات

والاعراف تستقر عبر الزمن لترسم اطار السلوك المقبول و تتعاقب عشرات السنين قبل ان يستجد شئ او يتراكم السوء بما يستدعي انتظار التبديل، على ان اعتياد الناس الشئ يقلل من الهمة الى رفضه. وكانت الفتنة او الانتفاضة تحدث ضد وضع ما لتعاظم الظلم من السلطان او لتراكم القوة في يد هذا أو ذاك من الرؤساء أو قادة المذاهب والعقائد أو لانبعاث احساس طبقي بالتمرد (في احوال نادرة) فتنقض الفتنة او الانتفاضة على صورة من الصور أو تتوطد بها السلطة ودونما التفات الى رأي الفلاح أو الكاسب أو اهل السوق او غير السوق. فاذا كان ذلك كذلك فقد اضحت المادة والمصلحة لا تدري كيف تدور حتى ترضي الفلاسفة الاخلاقيين بالتغيير المصلحي للاحداث وليس يكفي ان يكون السلطان واعوانه أو مناصفوه قد قدروا مصلحتهم في الذي فعلوه وتركوه بذكاء او بغباء وفي الحق أو الظلم كي ينسب التغيير المصلحي على الأكثرية التي اذعنت بان مصلحة للفتنة أو للانتفاضة. فاذا غابت الارادة استوى الحارث والثور والمحراث المسخرة في مصلحة القوى المتحكم بين حيث التأثير في الحدث ولكنها لا تستوي في حساب القوى المتحكم فانه اكثر اهتماما بسلامة الثور منه بسلامة الحارث الأجير لأن الثور لا يعوض الا بثمن ولكن تبديل الأجير باجير مثله لا يضيف شيئا الى الكلفة

الهم الذي اكابده في اصرار الفلاسفة على رد الاسباب الى الأحوال والمصالح والماديات ينبع ابتداء من خطأ الفكرة أصلا فقد قلت واظل اكرر انه لا احوال ولا مصالح ولا ماديات في الاجتماع والتاريخ يكون لها وجود بدونا بشر ولا تصطبغ آثارها في التعامل إلا بصبغة

بعضها

الناس المتعاملين فليس هناك شيء او مذاء فاسق حتى نفسر سوء استغلال البائع له بما فيهما من فسق، فالسوء من البائع وهكذا يكون السوء من منفذ القانون لا القانون نفسه [في اغلب الأحوال] ومن القاتل لا من البندقية أو كتلة الحجر ومن السائق الأرعن لا من السيارة حتى ان الاحوال الاجتماعية الفاسدة التي تعلم الناس السوء هي أيضا متولدة من الناس المكونين لها وليكن سببه تحكم الظالم فالظالم شر يستعين بغيره من البشر ويسخر البشر المذعنين المستسلمين لبطشه. وهنا نقول على السجية ان الجهل سبب خطير من اسباب السوء أو التخلف يغرب عن بالنا ان الجهل ليس شيئاً فالعرب والجنب المتزعين في المقاهي بل هو نقص الفهم والعلم عند الناس ولا يمكن التفريق بينهما وبينه كما لا يمكن التفريق بين الثلج وبين البرودة التي هي من طبعه. اننا اذا فرقنا بين الماء الفائر وبين حرارته بان قلنا ان الذي آذى فلانا هو الحرارة الزائدة في الماء نكون قد ضللنا انفسنا في تجنب الاذى من الماء الفائر لأننا سنشتغل بعلاج الحرارة منفصلة عن الماء فليس لنا طريق الا معالجة الماء الفائر بتركه يبرد أو بتجنبه أو باستعمال شيء واق من حرارته فكيف نقضي على الجهل نفسه اذا تركنا الجاهل وكيف نقضي على سوء استعمال البضائع اذا تركنا أصل السوق وكيف نستأصل القذارة في الحارات اذا بقي مكانها قذرين! ليس من شيء على الاطلاق فيما يكون الاحوال والمصالح والظروف المحيطة بالشر في مجتمعه يستطيع ان يكون مؤثرا بنفسه كما لا تكون صلابة الصخر مؤثرة بنفسها فلا بد من شر وصخر لتكون هناك احوال ومصالح وظروف وصلابة تؤثر صالحا أو غير صالح. والقول هنا يدور حول

(المجتمع) وليس الطبيعة من شمس وبحر وريح وصاعقة وماء.
فهذه اشياء منفصلة عن البشر منقادة لطبائعها ويكون اتصال البشر بها تالياً لوجودها لا خالقاً لها ويكون تأثره بها أو تطويعه لها أو عجزه عنها شيئاً شبيهاً بما مرت الاشارة الى بعضه فيما تقدم من كلام.

ويتعاظم هذا بسبب آخر هو فى ضخامة التأريخ والاجتماع على مدى المستقبل ذلك ان الاصرار على التعلق بالسبب المادى المصلحى وما يتبعه او يسبقه من ربط الاشياء بالتناقض لا يخفر ضرره فى تفسير الاحداث بغير سببها الحقيقى (اى البشر) وانما يكون اجتراء الناس لهذا الخطأ الفكرى الجسيم شبيهاً بتسرب خيط متصل من المورفين الى الجسم الذى يتعاطاه مع طعامه دون ان يحس به فيتلذع منه ويقتنع به ويتدعوش عليه ويستسلم فى النهاية لمقتضاه المحتوم وهو منح الالهية والاولوية لما سُمّى بالمصلحة المادية فى تفسير التأريخ والاحداث والسلوك ويعنى فى النهاية أن خالق المصلحة المادية قد سقط من موقعه الحقيقى الى مضيق الاذلال واصبح كالحصان الذى يربط خلف العربة فيصبح الجار مجروراً والمجرور جاراً. ان شحن الذهن الآدمى بفكرة من الفكر على مدى الزمان وبدون مناقشة أو انتقاد او معارضة من شأنه ان يطبعه بطابعها ويطوعه لمستلزماتها ويسد سمعه وعينه عما سواها ودلك على هذه البديهية شواهد بعدد التأريخ وسعة المجتمعات واذكر هنا بما يناسب المقام مثالاً من واقع تجربتى وتملك انك مثله من واقع تجربتك فلقد حدث ان كنت ضيفاً على وجيه كبير فى بشدر فى شباط سنة ١٩٤٠ و سألنى سؤالاً فى تعليل اختيار البشر لافعالهم بما يسمى (حرية الاختيار)

وكيف يمكن ان يتبع الكل الجزء فأجبته بما شف صدره. ثم سألني عن السبب في ابتعاد اصحاب الثقافة العصرية عن الدين والايمان بالغيب ولكنه استرسل فيما يشبه الجواب فقال اظن السبب يعود الى رد الأشياء الى الطبيعة دون الخالق فجاء كلامه قاطعاً و مغنياً عن تدخلي. فأنت ترى ان التعليل بالطبيعة العمياء العمياء عوضاً عن الخالق القادر على كل شئ والعالم بكل شئ هو تحول من الشئ الى نقيضه جرياً مع الاعتياد والترداد فاننا لا نجد بين الف مثقف تحول من الخالق الى الطبيعة مثقفاً واحداً بنى تحوله على العلم بأسرار الكون و نواميس حركته و أسباب بقائه ليستخرج منه رؤية غير متحيزة ترتاح الى نشوء الحي من الميت و انبعاث العقل من اللا عاقل فاذا كان في اول مروره بدور الشك خامرته اسباب تحمل على الميل الى تعليل جديد للكون فان تسليمه للطبيعة بقوة الخلق و الابداع قفزة الى أحضان المجهول اوسع الف مرة من الهوة التي حفرتها شكوكه بينه وبين الخالق. ولست ارى بكلامي هذا وعظ المرتد للرجوع الى الصوم والصلاة و المضمضة في الوضوء ولكن ألقي الضوء على فعل الاعتياد والترديد بالنفوس والأمثلة على ذلك تشغل الماضي والحاضر في كل مجال فما كان توزيع الناس على آلاف المعتقدات حتى يومنا هذا إلا بفعل الاعتياد والممارسة المستمرة حتى تجد عقائد مختلفة تتجاور في البلدة الواحدة لأكثر من الف سنة رغم اشتراكهم في السوق الواحدة و تعاملهم بالبضاعة الواحدة وقل منهم من يتزوج من الملة الأخرى أو يأكل من ذبيحتهم أو يدخل معبدهم. فالقول المستريات المصالح العادية تفقد الخطر و تصوغ الأخلاق وتقرر المصائر يؤدي

بطبيعته مدلوله الى ضمور الارادات ~~والقصور~~ و نكوصها عن التصدي
للاقامة ما هو مائل من المقاييس و المسالك و ما هو مختل باخراف هذا
و تسلط ذلك فانه يسهل الاستسلام للاعوجاج و الأخراف وفقدان
العدل لسبق الاقتناع بسريان حكم المصالح و المطامع فيصبح تدخلك
و تدخل غيرك لتعديل الخلل المتأتي من الرشوة و حب الغلبة والكسب
الحرام فضولا و خروجا عن الطور و نوعا من الوقوف بوجه ماء النهر
الذي يقضي باتيان الواقع المعوج. و اذا شهد المناضل رائده وقائده
ينصب الفخاخ لزملائه المناضلين له على الزعامة و جد تصرفه سليماً
ضمن نطاق التفسير المصلحي فينشغل معه في نصب الفخاخ. لقد رأيت
بعيني في اوائل عمري من آثار تعود الناس و جريهم وراء المألوف
ان شارب الخمر كان يسقط اعتباره لكن المرتشي والمرهب و قاطع الطريق
يعتبر واحداً من معتاد الناس لا يحمل عاراً و ان كان غير موجود ذلك
انهم لم يكونوا اعتادوا رؤية شارب الخمر فلما ألفوه بعد ذلك صار
انساناً مقبولاً لا يرفض الحاج يده اذا طلب الزواج من بنته. و ما
من عار بهما كما شأنه الا ويصبح امراً مألوفاً مع الزمن في مذاق
التفسير المصلحي. ان سريان الاستسلام لحكم (اختلاف المصالح)
و اعتباره هو القاعدة العامة لتحريك القوى الفاعلة في المجتمع وصل
بالمناضلين في الجبهة الواحدة الى التفرق والتناحر لا تفه سبب من
اسباب الخلاف على المصالح و قد يتناحرون على الاختلاف في الصياغة
فان جماعات كثيرة تجابهها اخطار الاندثار والاضمحلال لا تشعر
شعوراً ملزما بوجوب الاتفاق لدرأ الموت لان الاتفاق بحد ذاته
لا يحمل معنى التناقض بل يستوجب تجاهل التناقض وهو أمر يكاد

يرقى فى نظرهم الى مستوى تجاهل العقيدة : أصبح من الممكن ان تتهارش فئات سياسية من عقائد متقاربة على اقتراع احدى تلك الفئات بالاحتجاج لدى مجلس الأمن على عمل تقوم به حكومة استراليا فى جزيرة تسمانيا فانى وجدت الخلاف يثور بين المناضلين الغارقين فى عقائد اختلاف المصالح على توافه يخجل من ذكرها القائل !

لست من القائلين بان الوعظ والنصيحة وما اشبه ذلك من الكلام اللطيف يكفى بحد ذاته لقلب الدنيا الى صفة النعيم وجعل الناس يتحادون بالقشطة والحرير مع تحية الصباح فهذا فى ذاته كلام سافج ينزل بالمشاكل الى مادون الصعوبة فى التفاهم على (كش ملك والأورد جار) فانى بعيد من هذه المواقف الوعظية كبعدى عن تصورات احد المتناقض والتفاسير المضحكة من سهولة حل المشاكل عن سبيل القضاء على عنصر الاستغلال المتمثل فى فائض القيمة فمن ذلك تبسيط مدخل لعلاقات اجتماعية نمت وتفرعت وتشابكت وسخنت بطلاقة فلك آلاف السنين وعلى انماط تعددت بتعدد الشعوب والاوطان التى نمت فيها ونمت معها على صعبة العلاج لا علاقة لها بفائض القيمة والاستغلال اطلاقاً ، بل ان تسوية العلاقات الاجتماعية عن سبيل وصمها بالاستغلال على حين لم يكن من المقصود نشوء علاقات اجتماعية تديم معايشة الناس بعضهم لبعض واستمرار حياتهم وتقدمهم الا بالدخول فى معاملات وصلات تتضمن معنى (الانتفاع) اقول ان هذا التسويه فضلا عن أنه يحصر العلة والدواء فى أمر واحد قهراً وجبراً فهو فى ذاته تسويغ لاقتراح حلول تكون قد تقدست بتنزهها عن شبهة الاستغلال فارتفعت لذلك عن مستوى النقد والرفض وطلب

التبديل و انقلبت الى دين اشد عسراً على الناس من كلفة الاديان القديمة بطقوسها و شعائرها و هي على اى حال اكثر استهانة بالحرية و الحياة من غالبية المذاهب التي لها اتجاه آخر لأنها أقامت نفسها أصلا على وجوب اختزال الناس طبقة بعد أخرى وصلا الانشطة في صيغة واحدة مطهرة لا تسمح بالتعدد. و ليثق القارئ باني لا اشمت في أحد ولا اريد تجريح شعور أحد بآرائي هذه، واني لأشد الناس تلهفاً على اليوم الذي تتكامل فيه جهود غورباشوف فيما هو بسبيله من تنشيط دم ناكد في عروق شعبه و ادعوله من قراءات قلبي و وجداني و آمالي بالنجاح في مسعاه الى التجديد والتنويع و لتقطع يد تحاول وضع العصى في العربة التي يريد تحريكها الى امام سواء طالت يدا امريكية أو روسية مخرفة تعيش في الهواء. وكم كنت اتمنى قبل هذا ان يوفق غورشوف الى زعزعة التزمت العقائدي في وطنه عن معاقله ولكن المعاقل صرعتنا ويا للأسى!! اقول هذا لا من مجرد الغرام بسواد عيون ناس لا يشعرون بوجودي بل اقوله رحمة بنفسي وبأولادي و بكل الذين احبهم و أتمنى لهم الخير من بني وطني ومن عامة الأقوام التي تتأثر بنوع الفكر الذي يحكم في الوطن الأول للأشتراكية. ان الذي اقوله على بعد عميق من منبر التبشير سواء كان في محاريب المعابد او في رحاب الفلسفات و هو على قدر من وضوح الرؤية وقوة البداهة يسلكه في صنف دوران الارض حول الشمس فكما ان دوران الارض لا يتعذر صعوبة تبديل القراءة اليسار الى اليمين و انه كفيل بتغيير كل ظواهر الفضاء دونه حاجة الى تكلف افلاك ليس لها وجود كذلك شأن الكلام في الوجوح

باسباب التأريخ والاجتماع الى الانسان نفسه وليس الى اختلاف المصالح وما في حكمه وكلها نابع من البشر فان هذا الكلام لا يضطرك الى التأويل في اشياء لا تفسرها المصلحة ولا المادة ولا التناقض وهو كلام تحكم به البديهة وتجتمع له البراهين في كل شأن من شؤونه البشر من ادناها الى ابعدها ومن اكثرها اشراقا الى أوغلها في الشر والظلام فالتفسير البشري لا يفلت شيئا على الاطلاق ويعتمد بعوامل التعليل بدأ بالتناقض المفيد والضار وانتهاءً الى هراآت رجل الغاب مرورا بالحضارة والفن والعلم وحيثيات الاجتماع وادراك التأريخي ما وقع منها وما لم يقع فانك اذا قضيت العمر كله واستدنت بعدد اعمار غيرك لتجد شيئا واحدا من محتوى التأريخ والاجتماع والعمل الفردي وتخاريف النوم والمرض يتأبى على التفسير البشري لذهبت سدى فكما ان الحديد لا يجيب في تفسير أية عملية كيمائية يكون هو طرفا فيها ولا يمكن تفسيرها قطعاً بتجاهل دوره كذلك البشر بمجموع صفاته ونزعاته وقابلياته يكون بالبداهة مفسراً لاي حدث هو طرف فيه.

ويبقى الفرق بين البشر والحديد هو ان الحديد يتعامل بلا ارادة وعلى قدم المساواة مع المواد الميتة الأخرى ولكن البشر يكون هو العامل الايجابي الوحيد في تعامله مع غيره من الاشياء والأدوات في الطبيعة: البشر في دنياه المحدودة قديما والمتسعة حديثا والقابلة للاتساع المطلق في المستقبل يقيم معادلات اجتماعية لها من حيث اشتمالها على الارادة والاختيار ذات طرف واحد لا ثاني له هو البشر أما الحديد والعنب والحوت والنجوم الزاهرة فهو (امور واقعة) او مواضيع ليس لها دور في معادلة (الاجتماع) الا كما يكون

للسبورة أو الورق دور في صياغة المعادلة الرياضية المكتوبة بدقة وجمال. هذا القول الواضح منى يقتضى وضع البشر في التفسير التأريخي والاجتماعي موضع الاسباب المادية والمصلحية والتناقضية التي تكون بحد ذاتها جزءً من البشر ولا تشكل الا بعضا من نظام فاعليته المنتشرة والمنكسرة فاذا فعلت هذا تكون قد فعلت في (الأنانيات) ما فعله كوبرنيكوس في الفلكيات بوضعه الارض موضع فاعل الدوران المؤدي الى اختفاء الاجرام السماوية وظهورها اليوم وتعاقب بعضها في الظهور صيفا وشتاء وعدم غروب بعضها القريب من نجم القطب فاذا اضفت ميلان محورها على مدارها حول الشمس بمقدار ٢٣,٥ درجة تكون قاربت تكملة صورة الفصول والايام والليالي وتقاصرها و تطاولها و انقسام السنة في القطبين الى ستة اشهر ليل وستة أشهر نهار وبقي حسابات دقيقة لا تظهر لعين المتفرج لها تغيرها المقنع من دوران الأرض. انك تستطيع ان تفسر عن سبين فهم قابليات الانسان عدم وجود عقيدة عند البهائم وقصورها عن الكلام والكذب وتنظيم السيارات ولعب الكرة وليس بالمصالح والتناقضات. وبالبشر تفسر اختلاف سلوك الشقيقين لا بالمصالح والمناقضات. وبالبشر تفسر جزر العظمة وتفسر نشوء الاقتصاد والسوق والبنك وقوانين العرض والطلب والاستيراد والتصدير والاحتكار وليس بالمصالح والمتناقضات حتى اذا تسنى العثور على المصلحة والتناقض في تفسير بعض شؤون البشر فانها لم ينشأ الا بالبشر فقد اختفيا في القرد وقد تنشأ للمصلحة بزيد ولا تنشأ ببكر وتنشأ في المسيحية ولا تنشأ في الهندوسية. ومن هنا كان من اية جهة

كانت استطاعت البشرية ان يؤخذ البشر لبعض شؤونه من فستق وشلغم وراديو سببا للأحداث ومحركا للتاريخ والاجتماع والفرد نحو الأمثل أو الأقبح. فاذا فصل هذا واعتل البشر مركزه البشري كان ذكر المصلحة والمضرة والتناقض والتآلف والنصر والهزيمة في صدد تفسير (البشريات فردا وجماعة وتاريخا) كذكر الظلال الممتدة من الشيء الواحد الذي وقع عليه الضوء من زوايا متعددة فلا يكون غريبا ان نجد اللص او قاطع الطريق يتأنف سطوه بالبسملة والحمدلة والتوكل على الله وان نجد الأشتراكي من اصحاب الثروات ونجد المفلس يمتدح هرون الرشيد وان نجد اشد العقول سخفا أنشط ما يكون في عمل الخير. فاذا صعدت الى المستويات العليا في السياسة الدولية وفي الاقتصاد العالمي وجدت الأشياء كلها شريبة توسعت وتزامت حتى اهتكت بالسماء وقد تجد خلاف الرأي في نظرة وزير من وزير وفي رأي شريك عن شريك في بنك مائتان وقد تجد اتفاق الرأي بين الساسة من دول متخالفة. إنك اذا أنعمت النظر وجدت ان أوحدية البشر في التأثير الايجابي لا تنحصر في مواجهته لغير البشر بل قد يكون المتربص المادر في أمر من الأمور هو العامل الايجابي الاوحد في مواجهة الناس الآخرين الذين لا مهارة لهم فيه فالمشحون قادر على مصادرة ارادة المنجم في السياسة والغيبيات والمصالح اليومية وكل امر يخطر ببالك والقرية متكلة على المدينة في غالب شؤونها والمريض متكل على الطبيب وهكذا دواليك فالبشر نفسه متفاوت في فاعليته وارادته على درجات لا حصر لها بين الحدود القصوى لكل صفة يمكن ان تخلق برجل.

وضع البشر في محله الالائق به يختصر نصف المسافة الى الحلول الصحيحة

لمشاكل لأنها ستكون أصدق بمصدر المشكلة فانه شتان ما بين التلويح بلقمة الخبز في التسبيب والتفسير وبين ان تدرس الانسان و مجتمعه ثم تلوح بالخبز أو بالسيفونية أو بالثقافة على حسب الأقتضاء.
في كل الأحوال يكون اغتيال الانسان لمكانته الحقيقية باب الرجاء لخلاصه من نعنت المتعنت وشرة المتسيطر ونزوة المنتزى فاذا كان تدبير الكلام في دور المادة و المصلحة والتناقض يمهد لها في عقول الفلاسفة مكانة هي أليق بالانسان نفسه و يقود عامة السامعين الى التسليم بالمكاسب والرضوخ لعواقب البائسة فما عسى ان يكون شأن الانسان اذا تردد ذكره دواما بوصفه خالق المؤد المصنعة و والظروف المتباينة و التناقضات الحادة و الهيئة و العقائد المتباعدة غيره المتباعدة و انه المسؤول الأول والأخير عن الصلاح والفساد في عالمه. ان صنما لا روح فيه يتهاب و يقدس بأداة ذكره و نسبة الخطورة الى شأنه و ان لطخة في الجبهة و وقعا على العذار و وشما في الزقن يرفع الساعد الى مقام الصدارة في عشيرته فلماذا لا ينصرف الجهد الى تنصيب الانسان (ملكا) في ملكوته و صاحب الكلمة في الذي يقع والذي لا يقع ضمن نطاق اجتماعياته و لم لا ينسب اليه دور السلع التي يصنعها والحقل الذي يحرثه؟ لم لا يكون هو مسؤولا في ملكوت الناسوت؟ هل من كرامة للرأي الذي يبرد غطرسة القاهر بالقوة التي تجمعت لديه؟ و فاذا عن موقف المقهورين بألوانهم و ملابسهم المحلية؟ هل هم حجارة؟ هل هم عبدة الخوف و المصلحة وما اليه؟ الا يحملون شيئا من المسؤولية في قهرهم و اذعانهم؟ و لم لا يكون السوبيري عبدا؟ ام يقال ان الستلور حق للسوبيري كرامته و حريته؟ و هل كان

صول

التطور السويسري ينمو كما لعقت في الجبال والبحيرات ثم يتسرب
الى نفوس الناس ؟ افائن عادل ذو طموح وطمع أن يتجبر على الشعب
السويسري فاستكانوا بتعليل ذلك التجبر على انه حكم الأحوال و دائمي
المصلحة ، هل ينبعث (التطور) بمعزل عن السويسريين ليزيح المتجبر و
ينقذ المقهور و يغير الأحوال ؟ ما الأحوال والتطور والتأخر الا
انت يا انسان ولقد قال شاعر مصري ، اظنه خليل مطران ، من حوالي
ستين سنة :

ليس القرى ولا الدمن بوطن انت الوطن

فاذا كان من مصلحة الطامع المستغل ان يكبل إرادة الناس مشهراً فرصة
يراها متاحة على صورة من الصور أفلا يكون من مصلحة الناس ان
يمنعوه من تكبيلهم وسلب ضروبهم ؟ هل المصلحة وما يتبعها من
الأحوال والدوائمي صنود مجندة بقوة غيبية في خدمة الغاصب و
القاهر ؟ أليس هناك كلام نقوله في إرادة الغاصب و اذعان
المقهور ؟ وهل يخرس الفيلسوف لسانه انا طق اذا وضع الانسان
في معادلات القهر والاذعان والمصالح والأحوال في موضعه
الحقيقي من المسؤولية ؟ ما اسخف ان يقول لي الفيلسوف ان الاقطاعي
جمع حوله القوة و وسع من املاكه وراح يستبد بالناس ويستغلهم
ولا يقول لي لماذا لم يجمع الناس القوة كما فعل ذلك الاقطاعي اللعين؟
على مدى مئة الف سنة يجمع الفرد الواحد القوة والملكية ولا
يجمع الوف الأفراد شيئا يكون به انفسهم ويراد أن نفسر هذا الوضع
المقلوب بالمصالح والتناقض وما في حكمها من انواع الزقنبوت
ونترك البشر سكوتا عنه مثل بيدق الشطرنج يحركه الاعب

كيفما يشاء دون تفسير مقنع لتحول البشر ألوفا ومئين الى بيادق.
ان التوسل بالمصالح والتناقضات كان حريا أن يقول أن ارادة
قلة من الناس جابهت ارادة الأكثرية بسبب من تعارض
المصالح. وكان من طبائع الأشياء أن تكون قوة المعارضة من
ألف ارادة هي القاهرة لارادة عشرة او عشرين من الطاغين
فأذلتهم وسحقتهم في قمامات التاريخ..

انا اعلم كعلمك انت ان المجتمعات المتأخرة لا تنشط لدفع الظلم
بسهولة ولكني اعلم فوق ذلك ان الذي يؤدي بهذا المتأخر الى
قبول الظلم ليس حكم المصلحة المصورة في نظرية التناقض والا
لكان اقرب الى البديهة ان يثور المظلوم لأقل الظلم لان الظالم
سارق للمصلحة. والفرق كبير جداً بين ان يتحرك الانسان في طلب
القوت وبين ان ينتظم الناس في مقاومة ظالم يريد انتزاع قوتهم
فطلب القوت شئ يفعله كل الأحياء ولو كان لي مجال التوسع في
الكلام لشرحت قولي بأن طلب القوت ليس له شأن كبير في التطور
التاريخي كما هو قليل الشأن في تطور البهائم واوضح دليل على ذلك
ما قلته من ان الفلاح لم يتطور خلال الوف السنين تطوراً ذاتيا الا
في بطأ يقارب الجمود ولا يحسب انتقاله في العصر الحديث من المحراث
الى التراكتر في كثير من اكناف الأرض تطوراً ذاتيا حققه الفلاح بذكائه
وكده فقد اقبلت عليه المكائن والوازرها وقودها من المدينة
خالية من النقود. فاذا كان لطلب القوت لا يحقق تطوراً فمن باب
أولى او من باب القياس على الأقل ان لا يؤدي التناقض والتقاطع
في كدح المقتاتين الى التطور فالنزاع حول اللقمة والماشية

وحصة الملكية مهامشة لا تضيف حرفاً واحداً الى قاموس الحضارة
ونحن نعلم ان هذه المهامشات كانت حتى الأزمان المتأخرة تنتهي
بانتصار القلة وهي في كثير من بلاد الدنيا لم تزل تفضي الى النهاية
ذاتها. التطور التاريخي له تفسير آخر في عين التناقض وتوفير القوت
وبحثه مستقل عن عموم هذا الاستطراد.

واعلم كعلمك ان القاهر والمبتز وقاطع الطريق انتظم في عمله
من فاعل الخير واعلم ان السبب هو كون اولئك المنتفعين من
الحرام يزيدون بالظلم ثروتهم وقوتهم وان فاعل الخير يتبرع بشيء
مما عنده فاذا بالغ فيه أفلس، فليس من المنتظر ان يكون حرص السارق
في التطوع على بيت ضحيته مساويا لحماس الشخص الثالث في التطوع
بحماية المعتدى عليه والثأر له وإلا لما سطا أصلا، اعلم هذا و
لكن الذي يثقل على وجداني وأرفض الاستسلام لحكمه هو موقع
القناعة عند هؤلاء المقهورين بأن تقبلهم للظلم هو الموقف
السليم الذي لم يكن له بديل خلال آلاف السنين بمقتضى المصلحة
اي ان تكون مصلحتهم في ضياع مصلحتهم وان تكون كرامتهم في
التنازل عن كرامتهم وان تكون سلامتهم في سد رقابهم لسكين
القصاب. اني ارفض في بداهة (١+١=٢) ان تكون المصلحة والتناقض
مفتاحا لمغاليق هذه الكوزمة واراه ببداهة (١+١=٢) ان الانسان
في الشريف فهو يفسر نفسه ظالما يطلب ما عند الآخرين ومظلوما
يسكت عن اخراج ما في يده وليست وقاحة الظالم في اعلان نيته
الا صورة منعكسة بالمقلوب لاستسلام المظلومين. والتناقض الصارخ
بين مصلحة الآخذ والمأخوذ منه يكون معطلا لشلل الارادة لدى

لدى المضطهد فلا صحة لما يردده المحسنون من اصحاب النظريات ان
هذا التناقض كان عبر الزمن مثيرا للأكثرية المسحوقة ضد الأقلية
الظالمة فليس يعقل ان تفشل جهود مئة أسرة طيلة مئة الاف
سنة للخلاص من ظلم اسرة واحدة فالنسبة العددية بين المظلومين
الى الظالمين لا تقل عن مائة الى واحد. ولقد كتبت قبل هذا اليوم
بسنين كثيرة انه لولا طبيعة الاستسلام من الغنم للذئب لاستطاع
مئة و مئتان من الغنم من الكباش التي تقتل الادمي بنطحة واحدة ان
تقضي على ذئب واحد اخذ يبقر بينها فراح يفتك فيها تمزيقا و
تقتيلا فلو جربت قوة ضغطها الجدي على ظلوع الذئب لرشمتها
و لكن شلل الارادة يجلح على الاستسلام حتى ولو كان الذئب مريضا
واقع الأسنان متأكل البراثن. ما غاية الناس

مبدأ الاستسلام للقوى بشلل الارادة هي ينبغي حتى يدرسنا هذا في اغلب
بلاد الله الواسعة وزادت نكايته بالمسحوقين لزيادة أسباب القهر
والغلبة عند القاهر و بطأ نمو الأرادة في الجانب الآخر وانكشف من
آثار ذلك بما نراه في حالات اضطراب الأمن من ان كل عصابة مغامرة
مسلحة تستطيع أن تركب كواهل القرى والمدن و تخزها طوعا الذي لا يشبع
وما هذا الذي يقال من سريان الكفاح وعدم الرضا بوجه الظالم فانا
اقول فيه قول اليقين الذي عاينته وعشته فما تحرك الفلاح في وطني كردستان
العراق الا بعد الحرب الكونية الثانية بتأثير نشوء الاحزاب المؤسسة
على فكرة الكفاح الطبقي و تسرب افكارها الى الطبقات الفقيرة أو
المقهورة خلال الفترة الواقعة بين نهاية الحرب و بداية الخمسينات.
فالاولى الذي يدير الدائرة بين المظلوم والظالم هو ارادة المقاومة

وليس ضياع المصلحة بحد ذاته فلقد ضاعت المصلحة على مدى الدهور فما حركت للمقهور ساكنا فلما انتبهت ارادته على نحو من الأنحاء وبسبب من الاسباب بدأ بالتململ وعدم الرضوخ. ومهما يكن قولنا مختلفا في تحديد السبب فلا مجال لاختلافنا في ان المصلحة نامت قرونا قبل ان تنتبه على سنان الارادة التي تحفزت للنزال. ان الكرامة فعل في التنبيه والحث على الحركة خلال زمن قصير بما لم يفعله اختلاف المصلحة وما يعزى الى التناقض من ديناميكية خلال ثلاثة آلاف عام. ولابد هنا من الاشارة الى ان دفاع الفلاح عن ارض يملكها لا يختلف عن الكفاح الطبقي بل هو صورة من محاولة البقاء مشهودة حتى عند القنفذ والعصفور والدليل هو ان الفلاح لا يترك لظلم يراه وقع عليه على جاره. فكما ان نصرة الفلاح للذئب المفترس والجراد الملتهم والسارق المقتحم لا يحمل على معنى الكفاح الطبقي كذلك يكون تصديه للغاصب الطامع في ارضه فما هو الغاصب في هذه الحالة الا ذئبا يعتدي على قديس يذود عن نفسه فلا هو كفاح عن طبقة ولا عن وطنه ولا حتى عن قريته. الفلاح

الكلام في ماضي الأهوال التي تعاقبت على الناس منذ الوف السنين لا ينتهي الى غاية والبحث عن الاسباب لأحداثها يرد كل حادث الى سببه او يطول فيه العناء وينفرج فيه زاوية الخلاف على التفسير فلا اتوسع فيه فاضطره للصيد ما قلته من ان البشر نفسه سبب تلك الأحداث ولا تدخل المصلحة سببا في التعليل الا بمقدار اتصالها بارادة البشر ووعيه واختياره وشأنها شأن الغضب للكرامة واللين للمودة ورعاية الوفاء والحرص على العقيدة وما اليها وليس واحد من ذلك ضمن مفهوم المصلحة. ويمكن تصوير دور المصلحة ضمن اطار هذه الصيغة

٥٢٧٤٦٦٥

الزجاجة

وما يضغط على العصب النابض بالحس ان كلمة الزيف المبالغة الى
ذوي السلطان لا توضع قط على محك الصدق وانما تؤخذ فقط بميزان البلاغة
فاذا سلمت صياغة ما يشيع واذاعت بشئ ما يزيف قلت من مراتب الادب
حيث يليق المقام بالنزر البديع والشعر الرفيع وربما بعد ازمان من انطواء
عهد المديح والممدوح وعصور الاذهان على تقويم الآثار وقد تحرت الأعظم في صفاتها
يجدث ان يبرز نقد صادق وقدح صناك ولكن تقريع الضعيف الذي يسمى قباحات
الاظهار قباحات تكون بلا تأثير وبلا هوادة لاسباب كما يميز مشرحة
فتقريع الضعيف يتبع ساحة اثبات الذات للمتمكنين في نزعاتهم الى
الوقوف موقفاً يولهم بالقوة حتى ولو كانت وهمية. وانتصارهم للقوى في
غلاف موه من الفخر السديد والموعظة الحسنة هو السبب الذي للضعيف الخائف
عن طوره فيه تعلل بالتفاتة الى القوى أذن بمكافأة توقع الاذعان من بطش
وفي مجمل الأمر تمهيد لمغالطة النفس بصواب الأذعان للقوة الغاشمة

~~ملاءمة عدم الخضوع للقوة~~

يفعل ما

الواضحة : ان البشر يعتقد انه مصلحة . فقد تكون المصلحة مادية أو اعتبارية أو موهومة فهي صيغة تتسع لكل الاحتمالات بدأ بالاستسلام ومرورا بالمساومة والمراوغة والتهرب وشد الطاقات وبعثرتها وقبول التحكيم والرضا بالرشوة وتقبيل كعب الحذاء وانتهاء الى رفع السلاح بوجه الخصم أو الصديق فالمصلحة محوظة في هذه الصيغة على حقيقة ارتباطها بموقف الانسان في احواله المتباينة كما ترتبط الى حافز او كما تم آخر بموقفه . ولو تركت المصلحة وحريت الانسان في ارتباطه بأهل بيته خلال علاقاته الاعتبارية وتصرفاته اليومية لوجدت الناس في ذلك متفاوتين ووجدت الانسان الواحد يختلف تصرفه من يوم الى يوم تجاه شخص أو أمر متعين بالذات . والكلام هذا لا ينفي تشابه تصرف الانسان في احواله متشابهة أو مختلفة ولكنه لا يستلزم التشابه أو التباين على سبيل الحتم . ثم انه لا يعني ان الشخصين لا يتشابهان في احوال متشابهة بل قد يتفقان حتى في احوال مختلفة ولكن لا حتمية في ذلك للأمور هي أدنى ان تكون بديهية كأن يختلف موقف المسلم عن غير المسلم من الخمر والربا وقد لا يختلف فيأكل الربا ويشرب الخمر ثم يجيء بعد ذلك أو لا يجيء ومن اهل الاديان اناس نباتيون يجدون قتل البهيمة من اعظم الكبائر وآخرون من دين آخر يجدون قتل الحية والعقرب من الفرائض . وقديما كان الناس من اوطان مختلفة على اشد ما يكونون من الاختلاف في الصغيرة والكبيرة بل ان التوجس من الشخص الغريب كان يبلغ حد اللامعقول في الريف وبين أهل العشيرة الجبلية حتى اني كنت اعد قبل اكثر من خمسين سنة أهل القرية يقلقون اشد القلق اذا وجدوا رجلا غريبا من غير الطريق العام يجوب قريتهم

لاحتمال ان يكون غرضه تبيين مالكها الأمينة في سرقة بنويها . و وجدت
الناس في القصبات المنعزلة يفتعلون السبب لمشاهدة الغريب من
باب الفرجة على ملبسه ونوع تحيته وطرز كلامه و وجدتهم يتفكهون
بكلمة منه أو هيأة غريبة أو بشيء قاسته في المجاملة لم تكن شائعة بينهم ولو
استحضرت في ذهنك ما كان يشنع به اهل المدينة على جارتها واهل العشيرة
على الثانية لاستغربت كيف يتباعد الناس بعضهم عن بعض في العوايد
والقيم والسلوك وطرز التعايش وفي الموازين والمقاييس . وان الكلام
الكلو المحذر الذي يردده اصحاب القلم بحسن نية أو بغيره في ان الانسان
هو الأنسان في كل مكان فما اختلف هو عن هو كما اختلف الانسان
عن الانسان فقد اختلف حتى في شكله و نقل تمايزه الى الحيوانات
التي تستأنس به فتغيرت بالتدجين والتهجين ألوانها وأحجامها على
حين بقيت البهائم البرية محتفظة باشكالها فما تمايز الذئب والأسد والنمر
كما تمايز الدجاج والقط والكلب والغنم . ومن غريب المفارقة ان
يطلق القول في تشابه الناس ثم يطول العناء في شرح تراعاتهم وصعوبة
فلاحاتهم واخذ بعضهم بخناق بعض وهلم جرا .

الكلام في اثناء ماضي زمان البشر يطول ويتشعب وحري ان يستأثر بكل
الأهتمام حتى الانفصل منه الى الحاضر الا بعد جهد جهيد . ورغم
ان فهم الماضي على حقيقته بلا نية تزويق أو تشويه من شأنه أن
يفضي بنا الى الحاضر بعين مفتوحة على واقعه و ذهن مستوعب لمشاكله
فانه مع الصعب استيفاؤه ضمن كلام مفصل لغيره فالاولى ان نقصره
على شرح هذه الأيام أو على (الاوضاع المادية) لأحوال هذه الايام على
حد ما يرضى اصحاب الحلول المادية ولا يرضيني ، ذلك انهم يفسرون تصرف

الانسان بالمصلحة ودوافع الاحوال المادية في ضوء نظرية التنافس منقطعة عن البشر نفسه. وقلت منقطعة عن البشر تمسكا مني بجوهر ما تعنيه حقيقة تلك الفلسفات بلا تأويل فانك اذا رددت تصرف البشر كله للمصلحة والأحوال دون ان تنسبها الى البشر نفسه تكون قد تناسيت عامداً أو ساهيا كون المصلحة والأحوال شيئا شريا فاض منه بصلاح أو بفساد الا اذا قصدت بالأحوال مفردات مضمون الطبيعة من سماء وجبل وعشب فاسرع اما الاحوال الاجتماعية عموماً من سياسية وثقافية واقتصادية ودينية وشيطانية فهي كلها (بشر) لا يمكن الفصل بينها وبينه فلك اعتراض على من يقول ان البشر قد يكونوا اسير أحوال هو صانعها كأن يتوهم اوهاما فينحت لها صنماً يعبده أو يأتي الآخرون فيكبلونه أو يضللونه أو يدربونه أو يعلمونه. اقول ان الحاضر لم يصبح ماضيا حتى يكون قد خرج من ايدينا فمن المستطاع التعامل معه بلا عناء نظر أو دوار او اندهاش أو تحيز فليس علينا ان نتناول الحاضر على حقيقته ونسمي اشياءه من مكروهة ومحبوبة بأسمائها ونقترح الحلول على قدر ما يتضح من حقائق العلل. والعجب العجب ان يستطيع علماء الذرة والفلك الوصول الى اعماق الفضاء ولا يستطيع فلاسفة البشريات الوصول الى حقيقة ان الفلاح لم يستطع التقدم شيئا يذكر خلال آلاف السنين الا ما كان قادماً اليه من المدينة وانه لم يلد من الأفكار الا أشدها ايغالا في الهراء وان الحضارة البرجوازية لا جذر لها في الريف فهي ليست مولودة من الزراعة والاقطاع وان شؤون البشر تتقدم بتقدم البشر نفسه فلكي يمكن ان يوجد قلم لابد ان يوجد قبله انسان يريد ان يكتب. وكل اقلام الدنيا لا تعلم احدا شيئا اذا لم يتعلم على يد مدرس او بجهده

الذاتي. عجيب ان يفسر سلوك البشر بالاقتصاد او العقيدة أو الرحلة التأريخية او الظروف الاجتماعية والمادية او اي شيء آخر يخطر على البال خارج نطاق الطبيعة الحمراء ولا تفسر هذه الاشياء بالبشر نفسه. انك لا تستطيع أن تشتري الذمة بالرشوة اذا لم يكن البشر قد أحدث ظرفاً يمكن ان تروج فيه الرشوة وقبل ذلك كان قد أحدث المصالحة التي تتمثل فيها الرشوة وأحدث النقود وأحدث القانون الذي حرم الرشوة. ان الفصل بيني البشر وبين مشتركاته الجيدة والرديئة من مادية ومعنوية لكي يمكن جعل البشر مدفوعاً بأشياء فوق ارادته توصلا الى اختراع دساتير تعلل سلوكه هو، في رأيي، ابتعاد واسع عميق عن الحق اذا جاز بلد اصطناح وهو تضليل مدان اذا جاء عن قصد وسبق إصرار. حقا يحار الفهم في تردد الفلاسفة من الاقرار بان تصرفات الانسان نابعة من مجموع مزاياه التي تفرقه عن البهائم ولكن لا يتردد من الاقرار بان تصرفات البهائم نابعة من غرائزها. غريب حقا ان يعزو العالم ضرب البشر للطبل والمزمار عند الخسوف والكسوف الى تأثير الظاهرة نفسها لا الى وجود عقل بشري يعلل الظاهرة تعليلا خاطئاً فانه من قبيل البديهية ان البهائم لا تطبل أو تزمر لفقدانها العقل الذي يخطئ ويصيب ام ترى ان الظاهرة تشكو شللا نصفيا يعطلها عن التأثير في العجماوات؟ ان نظرة واحدة من عين نصف مفتوحة وعين نصف يقظان كاف لادراك ما يلي: كل ما في الوجود من مرئي وغير مرئي، قريبه وبعيده، سهله وعسيره، جميله وقبيحه لا يحرك مخلوقا الى الابداع والاستمرار والعبادة والتقديس او الاستهانة

والاستخفاف ما لم يكن له عقل ارقى من الغريزة يربط الأشياء
بعضها ببعض ربطا عقليا فيستخرج نسبها و يبني منها المحاولات
و يستنتج النتائج إما صوابا و إما خطأ والبشر وحده دون
سائر المخلوقات يملك عقلاً يخطئ به و يصيب و يهتدي و يضل
و لا وجه للقول بغير هذا لانه قول خلاف البديهة و ظاهر الحال.
وتبقى المسألة حيثية اخرى افظع من مجرد الاقرار بحقيقة من الحقائق:
لقد مرت الاشارة الى ان تقويد الفكر بعقيدة من العقائد يجعله
مطواعا لها ماشيا في أثرها وهذه حقيقة ملموسة لا تحتاج الى
مناقشة فهي وحدها تفسر اقتتال الاخوة والتضحية بالنفس و
خيانة الأمانة وكل الاشياء المعقولة واللامعقولة في عالم
(الاجتماع) حيث يختلط العقل بالغريزة فيولد الف الف صورة
متناسقة و متناقضة من تصرف الفرد و المجموع. ان تلقي الانسان
منذ صغره تعاليم تعظيم كتلة الحجر أو روث البقر يسلكه في نحى
مخالف لكل اقتضاء العقل و المنطق كذلك يكون تلقينه أولوية
دور المادة و المصلحة في صياغة تصرف الانسان مؤديا به الى
استصغار شأن نفسه و تنصيب المادة مكانه قائماً في تحريك
الدنيا من حوله. و لما كان الانسان محاطاً في عصره بالمصنوعات
البشرية و بالسلع التي يحتاجها في معاشه و معاده و يدأب في
الحصول عليها يكون إسناد الأولوية لتلك المواد إسناداً لشيء
يملأ على الانسان محيطه و يشغل ليله و نهاره و يتوقف عليه
رفاهه و مصيره و بذلك يتعاظم حجم اعتباره و قوة تأثيره في
قناعته فيسهل انقياده لمقتضى هذه القناعة من التخلي عن

قيمة الارادة الذاتية و القناعة الفردية بالذات. لقد كان الانسان منذ
فجر الف سنة محاطاً في تسعة و تسعين من محيطه بالوجود الطبيعي
الذي لم تكن له ارادة في وجوده فكانت استكانته لقوى الطبيعة
واعتباره لها مصدر السلطان بظاهرها الرائعة أمراً مفهوماً و لا
فكاك منه فلاذ بها بعد ذلك في لجوئه الى الطواطم والطلاسم والقرابين
لعلها تعينه على استرضائها. و انقلبت الآية على مر الزمن حتى
صارت المصنوعات البشرية تشكل تسعة وتسعين بالمئة من محيط
انسان العصر. وصاحب ذلك نشوء مدارس الفكر والعقيدة التي
تعالج تفسير الكون وصلة الانسان به فأصبحت الفلسفات التي
تولي دور المادة والمصلحة الأولوية في التأثير، اصبحت زيادة
قوة لسلطان المادة والمحيط على ارادة الانسان و زيادة ضعف
في شأن الانسان نفسه في معادلات المعيشة و التطور. وليس
بعيداً عن الحقيقة ان اقول ان مقام المصلحة المادية في عقل الانسان
الذي يدري المناهج العلمانية الى جانب تضخيم دور المادة
اصبح هذا المقام شبيهاً بالدور الاسطوري للطوطم القديم في
هو مضيب من اختلاط النقيضين أي العلمانية والمادية ذلك
ان العلمانية نور انساني محض و المادية تأليه مادي محض فكان
من نتيجة اختلاطهما ان تكونت مفاهيم متباينة للشخص الواحد في
تعليل الشيء الواحد فأصبح العقلاني المادي يجمع بين القول بان
الانسان أثمن رأسمال وبين القول بأن تغير وسائل الانتاج
يؤدي الى تغير علاقات الانتاج فيحصل كذا فهو قديساً بتقديس
الانسان ثم ينتهي الى الاستسلام لوسيلة الانتاج
وكذا

يجدان يكون قد اسقط من الاعتبار كون وسيلة الانتاج صنعة شريرة
ما ظهرت الا بعد تطور البشر خلال احقاب الزمان وأنها لكونها تلفيقاً
أو تجميعاً من شتى ذهنه لم تخل من احترامه بجزء من الف جزء من
احترامه لقوى القزح. ان النتيجة الماحية لشخصية من يتلقى مثل
هذه المفاهيم هي ان حلول المصالح و المواد المصنعة و الدساتير التي
تستنبط منها كمحرك للتاريخ، ان حلولها محل الانسان في اقامة المجتمع و
تسيير التاريخ يمهد السبيل للطامعين في السلطة والاستئثار بالحكم كي
يحتالوا على الناس بالمواد و المصالح والتناقضات ولسان حالهم يقول:
ها اننا وفرنا لكم المأكل والملبس ~~والمشرب~~ و ما تيسر من المواصلات
والفسح و سائر ضروبات المعيشة من بركات النظرية ويفضل حسن
تطبيقنا لها عن سبيل فهمنا لقوانين التطور، فاعملوا اكثر واكثر واشكروا
النظام الذي يطعمكم، الى نهاية مثل هذا الكلام الفارغ والمدان في
آن واحد فالمأكل و المشرب و ما الى ذلك لم يخرج من مخازن آبائهم كي
يوزع صدقة على الناس تستوجب الشكران والامتنان واغا هو صنع
يد هؤلاء الذين تحشى ادمغتهم بالكلام المضلل الذي يسرق فاعلية
هؤلاء المتمكنين و يمنحها للمادة والمصلحة الميتة غلاً للأدمغة
و إيماناً للثقة بالذات و ترسيخاً لمقام المسيطرين عليهم وبذلك
تنقلب الآية في تطبيق مبدأ تقسيم المكافأة بحسب العمل لأن اصحاب
النظريات والتخريجات قوم مستريحون يبذلون الكلام و يتفضلون
بالتوجيه في عملية انتاجية تعود ملكيتها للدولة فهؤلاء المنظرون
لا يتحملون أية خسارة في اي خطل أو خطأ أو هراء يلتبس بكلامهم
بل يلقون تبعاته على الاشخاص الكادحين المجتهدين في الانتاج

و بعد فلاصهم من التعب و المسؤولية يأخذون مكافأة اكبر و يتمتعون بالسلطة و مزاياها على حين يبقى الكادح دائباً في التعب و انعدام الاختيار و نقصان الأجر و قلة المزايا و التعرض للوم ثم هو لا يملك حق الاضراب او الاعتراض مع خلاف ما هو جارٍ في العالم الرأسمالي المتقدم الموصوف في نظريات (التناقض) بالاستغلالية و قهر العمال فانه بمثل ما آل تقديم دور وسيلة الانتاج على دور البشر الى نزول مقامه و فقدانه حق الاختيار كذلك صار افتراض ملكية المجموع لوسائل الانتاج ذريعة لشطب حق الاضراب من قائمة الحقوق. ان نظرية التناقض تمنح حق النضال ضد صاحب العمل اذا كان فرداً أو شركة غير مكونة فللعامل ان يثور بالحق و بالباطل في وجه صاحب المعمل او المشروع التجاري الذي من كل الانواع ولكن لا يسوغ له التفكير في مجرد المعارضة لنظام العمل و الانتاج المفروض عليه بحكم المسلمات النظرية المقدسة ولا يمكن ان يتم ذلك الا عن سبيل (الآلة) باعتبار سيدة الموقف لأنها شيء واحد ذو حكم واحد يمكن ان يسري على الجميع اما اذا كان البشر نفسه محوباً مصدراً أولياً واخيراً للمصالح و المنتجات و الآلات و الرساتيد و التقدم و التأخر فلا يمكن مطالبة جميع الناس بالرضوخ لحكم الآلة لأنهم متفاوتون ابتداءً في القابلية و الرغبة و التلاؤم مع الشيء و مدى الطموح ثم أنهم يكونون أسياد الآلة و أصحاب العلة في وجودها فكيف يستطيع المتكلم باسم الآلة ان يطلب منهم الاستحالة الى اتباع لها. ومن غريب الكلام الذي تسمعه يتردد على نطاق العالم من أن الحزب الحاكم في البلد الفلاني يوفر كذا و كذا لكذا مئة مليون من البشر وكأن هؤلاء الملايين هم تنابلة السلطان يشبعون على الحاضر. ان دولة كالصين فيها الف و مائة مليون

نسمة تملك من الأرض والماء والمعادن ومصادر الثروة الأخرى ومن الأيدي العاملة مقداراً تفوق نسبته الى ما تملكه تايوان (فورموزا) من كل ذلك ولكن فورموزا تتقدم اليوم على الصين (في مستوى دخل الفرد ومعدل الدخل القومي) ثم ان الصين لا ترتاح اذا تجزأت الى مائة دولة كل دولة منها ذات عشرة ملايين نفس بل الارجح انها تزداد متاعب لان التكامل الاقتصادي المتولد من الصين الواسعة يتيح بتجزئتها وقطع الترابط بين اجزائها. صحيح ان المجتمعات الكبيرة تطلب جهداً أكثر في تنظيم شؤونها ولكن صحيح أيضاً ان مكانها يشتغلون ويوفرون قوتهم بكدهم وان سعة مجتمعهم توفر امكانات أكبر للتقدم اذا استغلت مواردها بمهارة على مقتضى طبائع الاشياء لا النظريات المقدسة. على اي حال ليس من مصلحة ولا معقولة ولا انصاف ولا حقيقة في تأخير دور البشر عن دور ما سواه من الموجودات في عملية التطور وكل تبرير يتفتق عنه ذهن العباقرة لتكبيل ارادة الناس بتحجيم شأنهم وانكار أولويتهم في حيثيات التأريخ والاجتماع هو تكريس لذل الأكثرية وغطرسة الأقلية. اذا قبضت على مقولة (بتطور وسائل الانتاج تتطور علاقات الانتاج..) وقلبتها الى مقولة اخرى صيغتها (بتطور الانسان تتطور وسائله واحواله وانظمته..) تكون قد قلبت الهرم المقلوب الى وضعه المألوف ووضعت الحصان أمام العربة واعدت الحق المغصوب الى صاحبه وأفرغت وعاظ السلاطين الذين يصرون على استرقاق البشر لحساب الآلة. ان القول بمادية المصنوعات هو منحها قوة التأثير في البشر من دون النظر الى علاقة الصانع والمصنوع بينهما ودون الالتفات الى ارادة البشر واختياره في

الاقبال عليه و رفضها هي من قبيل القول بدوران الشمس حول الارض بحسب ظاهر الحال و يكون من نتائجه ان تكون الأرض مركز الكون و ان بعض النجوم تدور بسرعة تفوق سرعة الضوء بملايين المرات لانه تكون الكلمة في يوم واحد الدوران في محيط دائرة نصف قطرها عشرون مليار سنة ضوئية و نتائج اخرى لا نزاع فيها في الفيزياء و الفلك و حقائق الوجود كلها باطلة مبطلة . و لن يكون القول بعادية المصنوعات و تابعية البشر لها أقل تدميراً و تحويراً في شخصية البشري و دوره في قيادة التأريخ و عملية التطوير و اخطر نتائج ذلك في الواقع هي في خسارته للاختياره و سهولة خضوعه لما يلقى اليه من الجماعة المتحكمة في التصرف بالمصنوعات . لقد كان في امكان الساحر المشعوذ و مدعي الاتصال بالغيب ان يسحب وراءه قطعان الناس بزعمه انه يملك التصرف في المصائر و تيسر له ذلك بمصادرة وعي الناس دون حاجة الى استعمال وسائل القهر فيأتي تخلف اليوم من أصحاب السلطة و يصادر ارادة الجماهير حين يعزو التقدم والرخاء والتطور الى الآلة و السلعة و يزجم سيطرته على المصنوعات و الحاجات إلى شرعية تحكمه و وجوب الرضوخ لرأيه فيستعين في التوجيه و التصريف الكلام مرة و الكرباج مرة على حسب الاقتضاء ، و لا يوجد في هذا المشهد ما يمكن ان يعالج به نقمة الكرباج و ذل الخضوع الا انزال الآلة و المصنوع من العرش الكاذب المقام لها و تنصيب (الانسان) مكانها و مكان بقية العوامل الممثلة لمقام الانسان في تفسير التأريخ من طبقيات و تناقضات و أحوال و مقتضيات قطعوا صلتها في واقع العمل بارادة الانسان و درجة وعيه . ان التوسل بالمظاهرة و الاضراب في تحقيق

المطالب لا يكون ذا أثر حاسم اذا لم يحصل في نطاق نظام يحترم ارادة الناس و الا كانت المظاهرة غير شرعية من جهة القائمين بها و يكون قمعها من حق المتفلف المسيطر الذي اناب نفسه مناب كل الناس في ادارة الأمور بسيطرته على لقمة العيش و وسيلة الانتاج القابضتين على زمام التأثير في نصوص النظرية.

ان نزع الفاعلية من مخترع السلعة و صانعها الى السلعة نفسها هي من قبيل تحييد دور الطبيب في العملية الجراحية و رد الفضل في شفاء المريض الى غرفة العمليات و المضمد و المورفين و الأبرة و نور الكهرباء و قصارى الفرق بين الحالتين ان الفيلسوف المسيطر لا يستطيع التعرف على صواه في أجهزة الطب لجهله بها كما يتعرف في توزيع القماش و العنب و لكنه يبقى مهيمنا على الطبيب بتحجيم حريته في العلو و تحديد لباسه و تعيين مسكنه و ما إلى ذلك و يبقى مهيمناً كذلك بالطريقة نفسها على أهل المهارات من آداب و فنون و رياضات و كشوف. و ليس غريباً ان ينقلب تعصيب الآلات حقاً على البشر الى زيادة مكافأة العامل غير الماهر بسبب قربه من الآلة عن مكافأة الطبيب و المهندس و أهل الفكر عموماً فان منطق تقديم الآلة على مبدعها يقتضي تقديم المتعامل معها على صانعها الذي حجب دوره في الصناعة و على المبدعين عموماً من لا يبذلون جهداً عضلياً و انما يكون شغلهم الأول هو استعمال الفكر و الذكاء و قوة الخلق و الابداع. و الواقع هو ان رفع مقام الآلة فوق مقام البشر بنسبة عملية التطور اليدوي قد ضمن الاحترام الزائد للجهد العضلي غير الماهر فالآلة نفسها لا تقوم باكثر من الجهد المماثل للجهد العضلي

الخالي من الفكر فاذا كان الجهد العضلي محترماً في الآلة فلم لا يكون محترماً في البشر واذا كان مبدع الآلة يأتي في الرتبة بعد الآلة فلم لا يكون رتبته بعد صاحب الجهد العضلي. لعمري ان تفضيل العامل غير الماهر على المبدعين هو الشيء الوحيد المتسم بالعقلانية والمنطق في ربط التاريخ والاجتماع بوسائل الانتاج دون الانسان

ليس من همي الحاضر ولا في امكاني التنبيه التفريغ للأتيان ببديل للتفسير المادي التناقضي المصلحي في نظرية متكاملة صالحة أو قابلة للتنفيذ بأسبابها من حيث المنشأ و بحوافزها الدافعة الى التقدم و من حيث ~~ايصالها~~ ايصالها الى مستقبل متصور على سبيل اكتمل أو التزحلق او الأحتمال فالذي اقوله هنا لا يتعدى الدعوة الى نبذ التبشير بالعنف والنقض والاستئصال سبيلاً الى مستقبل مشرق فاذا قلت لشخص يهم بقتل اخيه: لا تقتل أخاك فليس من حقه ان يرجى/ يطلب اقتراح بديل مقنع عن قتل أخيه فقد كفاه أن ينبذ العقيدة الداعية الى قتل الأخ كي يرمي السكين وينشغل بأي شيء آخر وليكن التفرج على حركة السير في الشارع أو تعداد النجوم أو رتق ثيابه. ان الدنيا من حولنا تحوي امثلة كثيرة للبلدان في قمة الحضارة كان أقوى وسائلها الى النهوض والأمان والكفاية/ خلاصها من استعباد النظريات المقدسة لها و نبذ صيحات التهديم والتحريق والتصفية و اتباع سبل للتصرف هي ما تحكم به الفطرة السليمة والنية الخيرة الناجية من أسر الغريزة العمياء. و من عجايب ما يجبرني به بعض، بل جل، المثقفين المناقيض مع منطق التناقض العنيف والاحتكام الى قوة العضل دون قوة التعقل قولهم ان تلك البلدان المتحضرة قد مرت علينا بأدوار العنف والهدم والتقتيل

حتى التشبع فهي ما دخلت جنة الحضارة بخطوة واحدة بريئة من حمرة الدم وغبرة الصراع وبهذا يكون هرآت عالمنا العاشر مبررة ومغفرة في نظر اولئك المثقفين وناذلة منازل البداهة العفية عن المناقشة.

لا ابالغ اذا قلت انى اجد في مثل هذا التبرير لدوام عالمنا على عملية التنازع والتقاطع عياراً انموذجيا لا يقبل المناقشة في الأخن والغباء وتبلد الوعي فانه مما يرفضه حتى منطق المخابيل ان ننزل من دوابنا لنركب طياراتهم ونزور شاطئنا لنستشفي بكهربائهم ونطوي المسافات في المسموع والمرئي بأحدث موديلاتهم في الراديو والتلفزيون ونتبع العلاج بالاعشاب وبالمكن الملوثة لنستشفي بالأدوية المجيزة والأجهزة السحرية ما مستبكراتهم ثم نصر على الزاوجة في نزاعات قرونهم الوسطى للتدليل على أن التطور لا يكون طفرة واحدة. اننا نقفو أثرهم في استعمال مصنوعاتهم البالغة خلال شهر أو اقل فكيف نستطيع ان نتسالد حتى ندب كما ينمي في طلب كمالاتهم الحضارية في السلوك؟ الا ان النكبة في مضغ مثل هذا الخبال الأجوف أفدح من ان استطيع اتاحة ثقلها عن صدري بالنزول على حكم الضرورة فكيف اقنع نفسي بان الضرورة تدفعنا الى قبول الطيارة ورفض الرحمة والعدالة والأمان في تجربة تلك الأمم المتحضرة؟ والذي يضاعف الحس في هذا المجال مرات ومرات هو ان طلائع المثقفين والنضال وليس جماهير الجهالة يرددون خيالات الاعذار المجوفة فالجماهير لا تعلم اصلا كيف وحتى نزهف اننا نحضر وقعد القاعدون ليتعللوا ويتحيلوا بالأعذار، ثم ان الحلم يتضاعف مجددا بغير حساب حين أتصور يقيناً ان اقتباس الطائرة عمل مجهد يكلف كثيراً من المال والمرافق ولكن اقتناع الاخوان والزملاء والمواطنين

نظرية التحرير وعقيدة التحرير : فلكي يتحرر الناس من غلبة الأجنبي يكفيهم دين واحد و فكر واحد و تصميم واحد هو (ارادة الخلاص) فقط بلا تلوين أو تزويق . و اذا كان (ارادة الخلاص) تشل بالضرورة فكرة (وسيلة الخلاص) فهي تستبعد بالضرورة كل خلاف في الرأي وكل تعدد في القيادة وكل تأويل و تعليل يحرف المسيرة الى غير الهدف الذي فرضته ارادة الحياة ذلك ان ارادة الحياة هي أم ارادة الخلاص . اما (الوسيلة) في الخلاص فأن أقوى و أمضى و أكفل تجسيد لها هو في (وحدة الرأي) أولا و ثانيا و عاشرا ثم يأتي دور التبشير باللسان و بالقلم و بالرصاص فلا لسان ولا قلم ولا رصاص يكون له شرف (حماية الحياة) و(ارادة الخلاص) اذا انطلق من محاور الاختلاف في الرأي . وعلى قدر البساطة والوضوح في بداهة هذا الهدف تكون البساطة والوضوح والبداهة في قادة الفلسفات و الآراء التي تقسم الناس شيعا واحزابا في مراحل التحرير . على أنها ستبقى قاصرة بعد التحرير اذا بقيت على حالها في الدعوة الى الشدة و الكدة والعنفوان سبيلا الى حل المشاكل . ان احد مصاديق ما قلته من تأثير المعايشة مع المفاهيم وترديدها على مر الايام هو ما أنقده صنا و انتقدته مرارا من سهولة انبعاث التنابز على اي مقدار من الخلاف في وجهات النظر فان كل جهة من الجهات تجتر و تجتر موضع الخلاف مع التحيز الكلي لوجهة نظرها الخاصة و الادانة الكلية لغيرها و يمكن الاستدلال بما هو واضح في خلافات عالمنا المتخلف على أن اي خلاف مهما كان تافها غارقا في الخيال و بعيدا من الأمور الراهنة للتنفيذ خليق ان يبعث على أشد المعارك ضراوة فقد كفى سببا للتنابز ان تؤمن الجهة (أ) بالاشتراكية الخالية من الوصف وتؤمن الجهة (ب) بالاشتراكية

الديمقراطية في حين يكون الظرف غير مساعف لا للاشتراكية المجردة ولا الملقبة ولا الاقتصاد الموجه ولا الاقتصاد الحر ولا لأي شكل من اشكال الاقتصاد وغير الاقتصاد بسبب انعدام موطئ قدم واحدة يمكن ان يثبت عليها اي بنيان مهما كان نوعه وشكله واسمه وجنسه. انك تستطيع أن تتصور من اهوال عالمنا العجيب الغريب تخصيص من فئتين سياسيتين بينهما خلاف في التسمية فقط كان يكون اسم احداهما (الديمقراطي الكردي) واسم الأخرى (الكردي الديمقراطي) وهما يفران من خط واحد فاذا جمعتهما الصدفة في حال الفرار ساقتهما البديهة (السياسية!) الى تبديل وجهة السلاح نحو صاحب العنوان المختلف بعيداً عن عرس الخنين الذي يستوي عنده الكردي بالقابه المختلفة طالما يخدم قضاي لأمره. لقد ضربت المثل بالكردي زيادة في طلب الموضوعية وذلك انت ... اخ الآخر العربي. ان تضرب المثل بثوار عدن و بفصائل التحرير الفلسطينية ثم يبقى لك الخيار الفسيح للتمثل بشعب (تشاد) وغيره من شعوب دنيانا الكسيحة الفسيخة ويا للأسى المضطرم في صبات القلوب!!

رب قائل يقول ماجدوى كراهية الخلاف واقتتال الأخوة وما جدوى التدليل على بطلان النظريات الداعية الى حل المشاكل عن طريق (نقلي النقض) على حين امتلاء الدنيا قديما وحديثا بالخلافات و النزاعات و الصراعات على المصالح أو ما يُعتقد انه مصالح وكيف يمكن اقناع المشتبكين في نزال الموت بصواب العلاج المتمثل في مواعظ ناصح مخلص يقول لهم: كفوا عن التناحر فأنتم مخطئون و هل ينتظر عاقل ان ينسى الداخلون في معارك التصفية كل الأسباب

و المسوغات التي دفعتهم الى قبول أشد المهالك و المهاوي ليصيحوا
الى عابر سبيل يكتب تعاويذه في صومعته اثناء ساعات راحته
متفضل عليهم بالحكمة و الموعظة الحسنة التي رفضوها أول ما سلكوا
سبيل المناضلة و المكافحة و المقاومة ؟ عالم الفلسفات
و المصالح المتصارعة غني عن الكلام الشاعري المفعم بالنوايا الطيبة
و الاحاسيس النبيلة فقد سبق ان افلست فيه شاعر الاخوة و الامومة
و الأخوة و شاعر الصداقة و القرب و كل صلاوات الاجتماع حول
مائدة الوئام المثقلة بأشهى المشارب و المآكل .

هل هذا الكلام الذي اعترض به على نفسي يعطيك دليلاً على انني
غير غافل عما هو جارٍ في الدنيا و عن اعسر المطلب المتكلف في استطراداتي
بل تعذر النفوذ الى قلاع المجالدات و سوح المعارك بامتشاق
نار الرامي الذي الهق منه جبان فيل جبانا و غدغاته لأعصاب
الوسنانين في بشتيده الحالم في دنيا الخيال :

" أعطني الناي و غن فالغنا سر الحياه "

هذا الغناء سر الحياة و الناي آيل بالنافخ فيه الى حبة توت
واحدة أو طرد بربوش من جلدة المضطجع على الثرى و لن يبلغ بآلاته
و تآدهاته عتبة باب الكراس على قلاع التناقضات و المصارعات
و الواقع هو انني في كل ما اكتب من نقد لأيديولوجيات العنف و الحدية
و فلسفات الصلح الجذري اتشفع ببطاقة دعوة واحدة لحضوري
بالرأي في دلائم اصحاب العضل المفتول المدجج بالسلاح و المشدود
بتوتر التطرف و هي انى أقوّم الحدة و الشدة و قطع الرحم و رفض
الصلح بالمنطق الذي يستند اليه كل ذلك عن سبيل الكشاف خطئه

ما تحقق من تطور

و بيان فضله وضرره وأنقل نظرها على ضوء النتائج المتحققة و المنتظرة في نهايات أشواط العنف وفي الدنيا المتحضرة التي لا عنف فيها ولا صدامات تفضي بعضها الى شارع مستقيم ذي اتجاه واحد لا تفرع فيه ولا ميلان فما التجأت في كل ما آلت الى نظرية تحت الطلب بمقدماتها و حججها ونتائجها تعارض الحلول الجذرية و الأيديولوجيات المادية و التوسل بمبدأ التناقض ولو فعلت ذلك لما زدت على ان أكرر عقيدة تكون قد رفضتها المدرسة المادية كرفض اللامادية المادية سواء بسواء و واضح اني في ترديد رأي غيري لا ابلغ مبلغ صاحبه من حسن التعبير والصياغة ومن الاحاطة به والاشتمال عليه. وقد وردت (المدرسة المادية) هنا في كلامي لكونها اساسها وحجرها واساسها غالبة على دنيا الفرارا والنيران والحل الجذري الأستئصالي فاتحت نفسي في التعبير بالمادية تيسيرا مساهمة أوسع منها في دنى الفضال والنزال، فالواقع هو اني اديت ما ركنى المتواضع المفتقد لأدنى شيء من قوة التأثير على اولي العنف والكرية والجذرية والنقض والتفسيخ وأي قدر كان ما ارغام الناس ضد قناعاتهم فكل ما عاد ضد الاقناع الطوعي في الدعوة والترويج لمذهب من المذاهب هو مرفوض رفضا قاطعا فانا حر وجذري ونهائي و متسع من العبارة (انظر في مسألة (الأختيار) ذلك أن التسليم بالقليل من الارغام يجر الى التسليم بالكثير منه و يوفر للطامعين في الدنيا مدخلا الى باب التأويل فانهم بسبب سكوت الناس عن حقوقهم يستعملون اعتى وسائل الارغام بلا تأويل فكيف بهم اذا وجدوا ما يتعللون به فقد كفل بالقوانين التي اقرتها الأكثرية الحرة ان تكون فيصلا بين المباح والمحظور وكفاها تزاحة ان تكون عرضة للتغيير تبعا لتغير رأي الأكثرية الحرة وكفانا برهانا

على صحة ذلك استتباب الأمن وشيوع العدل واطراد التقدم في كل بلد أخذ بحرية الرأي ونبذ الإكراه.

على أي حال، جوابي على من يقلل من شأن هذا الكلام الذي ينشأ من قلم انسان مثلي أثر القلم على النضال والكفاح والمتاعب هو أنه بصرف النظر عن أي وجاهة وقيمة وخطورة للعلل التي سقتها واسوقها في دعم وجهة نظري فاني احتكم في هذا وانتقالي الى اي قدر من الانصاف يمكن ان يكون قد بقي في قارئ الصفحات حين اقول اني ما جرأت ان استعمل من حرية الكلام جزءاً من الف جزء مما يستعمله قتلة الابرياء بالجملة وحطمة المدن والقرى والارياض بغير حساب ونهبة المال والحياة والحياء معتزين بأنهم تحت شعارات تلألأت بجلال مفاهيمها وانذرت قدسيتها كل انسان يتصدى لانتقاد عملتها.. والكلام بيننا: ان العادة جرت منذ قديم الزمان ان تكون مكافأة الانسان الضعيف الذي يتجشم تعكير مزاج الاقوياء تقريعاً وتوبيخاً وتخطيئاً له من عامة الناس فقد اعتادوا تقبل الدلال والنحز والتطاول عليهم من القادرين على الظلم فتكون ادنى ثمرات هذا الاعتياد تهزئ الضعيف الذي يمد رجله باكثر من طول بساطه. والتهزئة لهذه وجه آخر غض غارق في الأنتهازية فهي تتضمن في الوقت نفسه تزكيتهم لأنفسهم في سكوتهم عن الظلم ومع التزكية بعض شعور ملفق بالرضا عن الذات. فها هنا ثلاث جنايات كبيرة في حيات موقف مأساوي في سويداء اجتماعياتنا: فالجناية الاولى هي الادانة البريء المتطوع بالشرارة. والجريمة الثانية هي مباركة جبروت الظالم في مواجهة الاستكانة العامة. والجريمة الثالثة تلفيق براءة الذمة العامة في تبرير مركب من نهج مباركة الظلم بتهزئة رفضه.

على اني لم اكن ابلغ في تقريعي هذا المبلغ لو كانت العامة يتقبل بعضها ظلم بعض بجزء من عشرة اجزاء من تقبلها لظلم القوى أو انها سكتت على الأقل من تصدي الضعيف للقوى وذلك أضعف من أضعف الايمان بمراحل كثيرة. لقد وجدت الضعيف يأخذ بخناق الضعيف الى حد الهلاك قاتلا أو مقتولاً. ان القرآن - هذا الكتاب الذي بيديه الآخذون بالمادة - عاتب النبي بلا هوادة حين عبس لضرير ضايقه بسؤاله والنبي مشغول فيما هو أخطر فتلت آياته من «عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ» حتى بلغ الذروة في العتاب بقوله «لا أما من استغنى فأنت له تصدى» فما بال الآية تنعكس بعد ألف وثلثمئة سنة من التطور والتقدم الى العلمانية فيعاتب الضعيف على مضايقته للقوى؟ لئن كنت أجترح عظيما في افلات القوى وهو اخذة الضعيف فان المعاتبين سيدينون شاعراً، كما هم أحرياء ان يكونوا قد ندموا في الماضي، على التقاعس الجماعي عن ادانة المعتدي واعانة المعتدى له فليس واحد من هؤلاء المعاتبين بناجٍ من يوم يفر فيه المتجبر بابه ويشرد له نابه ويطالبه صاحبه بشريعة من شرائع الغابة وللساعة مندم والنوح في مأتم!! والقول ها هنا انتشر حتى عم الكل وهو في الأصل موجه الى قادة الطلائع وعموم المناضلين من حاملي مشاعل الثورة ومطارق الثورة المضادة فانهم المرشحون الأوائل للهرش والطحن في مطاحن التفسير المصلحي المادي التناقضي ذلك ان التناقض الداخلي في كل تنظيمات اليسار على نطاق العالم حركة شايعة ومتصلة بطبيعة الفلسفة نفسها وبطبيعة التخلف المسيطر على ميادين تطبيقها فاذا جاز ان يختفي الاحتكاك بالأباعد فليس بالامكان عدم الاحتكاك بين الاقارب

والفاجعة الكبرى في تجربة أولئك الذين يصلهم دور التصفية من مناضلي عالمنا الثالث السابع العاشر هي استبعادهم لاحتمال أن يلتف الحبل المفتول في يدهم لاصطياد الآخرين، ان يلتف حول رقابهم. فاذا (بلغت التراقي) انكشفت الى التلاشي و الأضمحلال كل الفلسفات و العقائد و الايديولوجيات بجلورها الكبذرية و معالجاتها الكلية واستحالت جميعها الى بؤرة ظلماء من انعدام النور فيما شرعوا بها نفسهم وهددوا الآخرين بالويل والثبور. ان الذي يختال على الناس عشرات السنين بدعاوى الزعامة الطنانة الطنانة في العلمانية و المصائرية و الحلول النرجسية يجد نفسه في لحظة واحدة يدفع ثمن عود المشنقة قد استحال نفاخة فرمت من غازها بثقب أضيق من ثرم الأبرة فلا معين له على التماسك في الموقف العصيب الا الرجوع الى الرحمة و المواساة و الملاينة التي نبذها كل عمره فهل تتسع الدقيقة والدقيقتان السابقتان على الموت ليطوي فيهما مساحة ماضي عمره في الأيمان بالحرق والشنق والسحق ويبسط عوضها غلالة من هرير التبشير بالسلام والأمان تحبو عليها روحه او طاقته الحيوية الى سلة الانطواء والانقضاء والانزواء ؟ لا تظنوا هذا الكلام من ومن غيري زخرفاً في هامش سفر الحياة غير نافذ الى صلب المعترك المدوي بأحداث التأريخ فالمناضلون المتصايحون بنعوت البطولة و بلاهم الاكتساح ما قدروا غير الألفاظ: فما أحد منهم وضع لبنة على الطين في مائط احتقار الأكواخ و إنما تفضلوا بعد التمكن من السلطة عن طريق الأسر و النهب الأفظع او الكتائب بما يلزم الناس ان يفعلوا و يتركوا فأنا و غيري من القائلين نساويهم فيما يتلقاه الناس من بضاعة الكلام و غاية الفرق بين البضاعتين هي ما يميز حلاوة الموسيقى عن ضراوة

المدفع ولكن كانت موسيقانا لم ينج بها قط أن تنبعث بالتبشير والتوجيه لينكشف مقدار الغلة المتحصلة منها فان بلاداً غير قليلة العدد بلغت في الرقي مبلغ الأستغاضة عن المدفع بالموسيقى في تفهيم الناس ما يجوز وما لا يجوز فقد ظهرت بها تيك البلاد مديات التفاوت المذهلة بين حظوظ الناس من نعم الدنيا ونقمها وهي على قدر التفاوت بين القيثارة والرشاشة إمتاعاً وإهلاكا.

الكلام في دمن غيري لا ينال أحداً بالضر فهو ليس مقذوفا ناريا يتبارى المناضلون في التحية الحربية وقصارى الخسار فيه ضياع الجهد على صاحبه فيما يقدم من رأي مصروف فيه جهد التحبير والنشر ثم هو لا يلزم أحداً بالأكراه فاذا حصل ان اتجه الناس [illegible] فلم يجدوا فيه جدوى فقد كفاهم عناء انهم لم يجدوا فيه معارك فليكن ان ما صرفه فيه القارئ من ثمن الشراء وقت القراءة قد كان مصروفاً في الكلمات المتقاطعة او رواية الأرسين لوبين. والذي لا شك فيه هو ان الخطورة [illegible] لأية فكرة كانت تأتي من تضمنها البرنامج عمل أو خطة سير بما فيها من تبعات وتكاليف يتسلل بعضها من بعض فاذا التزم بها الشخص كان حريا ان يصبح اسيرها خطأ من عمره وقد تكلفه عمره كله اما هذا النقد المنزه المخلص الذي اسوقه في اناة العنف والحدية فلا يتعدى قصارى قصاراه ما يفعله الزيت المسكب على الحديد الصدي من ازالة صدئه وكشف جلوته وصيانة قواعه من الاندثار. وبفرض اني لم اسكب زيتا على حديد صدئ أو اخطأته فاسكب على رجل محترق [illegible] فليس في ذلك سلوة لأحد ولا عوض من جريح مهما صغر، يريد للناس رشدا ويبدأ بنفسه حيفا أو يوقع عليهم ضررا. اعلم ان كلاما خافتا كالذي اناجي به ارواح

اناس يحلمون بالإمان بعد اكتوائهم بنار العنف و أطرق سمع المتشددين
في سالف الحدية و الجذرية و الاستئصالية كمن يضرب في حديد بارد، شل
هذا الكلام في قصوره عن تعديل المعوج و اقامة الحق اعجز النسيم العليل
في مغالبته العاصفة بنية ايصال السفينة الى بر الأمان و لكنه هو ذلك
و رغم ذلك بل بسبب ذلك يرقى الى مستوى الواجب المقدس الذي يكون
تركه إثما كبيرا فاذا سكت اصحاب الكلام النسيم الحريري كلهم عم الأثم
جماهير المقهورين جميعا بلا استثناء كما يعمهم الاثم في تركهم واحدا
من فروض الكفاية فالسكوت المطبق في الشأن المطلق اهانة لذوات الساكتين
بالمعنى الكبير الذي لا تخطئه عين القريب و البعيد و لتيسور
تصور فلو تأرخ الكفاح بين الحق و الباطل من صلصلة الجذر و جلجلة
ابن حنبل مرورا بذوي الضمائر الحرة في انسياب الزمان بكل مكان فان فلو
الانسانية من قولة (لا) تلقاء الباطل المستغل هو تعطيل لنصف قوة
الحق في طلب الكمال لان دحض الباطل هو نصف المسافة الى تمام البرهان
و من الحكم الثقيل في هذا المجال كلام يردده العجزة آية خاقعة على حركة
المسكنة في عروقهم حين يقولون بأشداق مفغورة فيما يشبه التشاؤب
الا : بيت الظالم خراب و لو بعد حين فهاهنا تلبيس للحق بثلاثة اثواب
سميكة من التضليل فهو يسكت الا لا عن خراب بيت المظلوم حالا و ليس
بعد حين و يكل الأمر ثانيا الى فعل الزمان الذي سيؤدي بغية كل شيء
و دنما حاجة الى تكلف المجهود في دفع الشر أو الخير و يتغالب ثالثا أن
خراب بيت الظالم بعد حين هو بداية عهد ظالم جديد و ليس مفتاحا لباب
الفردوس الا ساء ما يزعمون ! و ان انس لا انس ليلة ما ليالي تلمذتي في
الابتدائية ببلدتي قدمت فيلم مصرية (لنيدا) دعت اليه دعوة البلدية دكان
مدرستنا

العقلية والنقلية

ابو صاحب الكلمة الافتتاحية في الاحتفال سافر فيخ من ضروب الادلة ما برهن به على ان الفن المسرحي بوصفه حاجة من حاجات العصر فهو في حكم الشريعة الاسلامية يرقى الى فروض الكفاية. وكانت نكبة المسرحية سقوط نيرون وارتقاء الأصوات باب الظلم لا يسدّ وان بيت الظلم خراب وما الى ذلك.. وفي نحن في طريق رجوعنا الى البيت قال والدي في كلام هو نزيم من مخاطبة النفس والتعليم للسامعين: صحيح ان الظلم لا يسدّ ولكن حتى يخرب بيت ظالم واحد يخرب بيت الألوف المؤلفة من المظلومين. وسرعان كلامه في عقل الفتى لا يجوز منذ [illegible] وائل الملاعبات [illegible] لا يجوز ضاع من الحكمة أو من الأحداث. ان غاية ما يبتغيه القول بخراب بيت الظالم من السكينة في قلب السامع هي ان ظالماً متقمصاً بالذات لا يسدّ الى ابد الآبدين وهي سكينة يحرم الفتى في انقضاء يوم واحد سيدرك ذلك! على ان بيت الظالم قد يعمر ويعمر يتوارثه الظالمون جيلاً بعد جيل فلا يبقى من ثرات تلك الموعظة الداعية الى الاحساس الكاذب بالاطمئنان الا ما يبقى فيخ من موروثي هذا النفس على التحلل من التبعات بانتظار الفرج الموكول الى المجهول المرقوب وقصارى الفرز الأصوف المترشي منذ ايام اذانة الظالم على كر الأيام وقد كفى هذا الفرز دليلاً على الخواء والاطمئنان أن الحكمة المذكورة تردد من الف سنة مضت فلم تضف الى موازين العدل ولا نقصت من موازين الظلم مثقال ذرة من خردل ولربما كان محصول التدقيق في اثار هذه المقولة هو رسوخ الاتكالية والهروب من التبعة وترك الأمور تجري في اعنتها الى حيث تستقر على هوى الظالم فما كانت الدنيا قط تدور من ذات نفسها في مدارات الفلاح والاصلاح والخير الملاح. وربّ قائل تمسك ببقية المتزيح في قوس الجدل فقال ان تنديد تجنب الظلم على علاته خير من السكوت عنه وادل على نبض الاحساس بالخير والشر في العروق فأقول له بعضه

لزام

ستريح ان الظالم يرتاح الى تقبيح الظلم بالامان ليقينه من ان تأصل النفاق
في موازين الاجتماع يمنع ان يكون هو المقصود بالتقبيح ولو استعرضت تاريخ
النفاق في توظيف الشعر لمدح الظالمين وجدت العجب العجاب من جرأة غالب
الشعراء في تقديم النقيض بحجة الممدوح المجد لأغلى انواع الفضيلة وهي
الوفاء الراسخة من خلال عصره الى آخر فهرست الرياء في قلب المعاني
اشفها وارفعها واحفظها على الاقوياء طبعا واعتاهم سيرة واعمالهم
سريرة وربما كان وصف المتنبي لكافور بأنه (المسك أسلم مخرج وصدره
الى المنقص من دائرة الحروج اذا كان صارخ الزنجي بتقبيح البياض في معاذ
من السواد فجاء تخييب السواد في المسك حافظا لماء الوجه واخفا
للعتبى معا .

انور عبد المنعم
كريم كمن